الفصل الأول

وجود الله بين المثبتين والمنكرين

ويشتمل على :

المبحث الأول : هل أنكر العرب وجود الله .

المبحث الثاني : حديث القرآن عن وجود الله .

المبحث الثالث : استدلال المتكلمين على وجود الله .

المبحث الرابع : استدلال الفلاسفة على وجود الله .

المبحث الخامس : شبه المنكرين للألوهية والرد عليهم .

المبحث الأول

هل أنكر العرب وجود الله ؟

إن وجود الله حقيقة لا تحتاج إلى برهان فهي فطرة فطر الله الناس عليها ، ولذلك فإن القرآن الكريم لم يكن من أهدافه إثبات وجود الله ولا من أهداف الرسول ﷺ، لأن العرب الذين ظهر فيهم النبي ﷺ جميعهم على الاعتقاد فى وجود الله ، يقول سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥].

ويقول سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، والآيات كثيرة في القرآن الكريم التي تبين لجوء المشركين إلى الله لكشف ما بهم من ضر .

يقول ابن رشد : «**إن العرب كلها تعترف بوجود الباري سبحانه وتعالى**» (١).

والشهرستاني في الملل والنحل يقول : «**وشبهات العرب كانت مقصورة على شبهتين** :

إحداهما: إنكار البعث .

ثانيهما: بعثة الرسول (٢).

ويقول في نص آخر في كتابه نهاية الإقدام : «**وأما تعطيل الصانع العالم القادر الحكيم فلست أراها مقالة لأحد ولا أعرف عليها صاحب مقالة إلا ما نقل عن شرذمة قليلة من الدهرية أنهم قالوا : العالم كان فى الأزل أجزاء مبثوثة تتحرك على غير استقامة واصطكت اتفاقاً فحصل عنها العالم الذى نراه ، ودارت الأكوار وكرت الأدوار**

(١) منهاج الأدلة (ص ١٢٨- ١٢٩) مكتبة الكليات الأزهرية.
(٢) الملل والنحل للشهرستاني بهامش الفصل (١٠٥/٤).

وحدثت المركبات ، ولست أرى فى صاحب هذه المقالة ممن ينكر الصانع بل هو يعترف بالصانع ولكنه يجعل سبب وجود العالم على البخت والاتفاق احترازاً من التعليل» [(١)].

والشهرستاني حين يذهب إلى أنه لا يعرف أحداً عطل العالم عن صانعه إلا الدهرية ، فهؤلاء ليسوا من العرب ، لأن الكلام الذي نقله الشهرستانى عنهم لا يتناسب مع العقلية العربية بدليل قول الشهرستانى: **«لم يرد التكليف بمعرفة وجود الصانع وإنما ورد بمعرفة التوحيد ونفى الشريك)(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»** [(٢)].

فإذا كان الأمر كذلك فعلام يحمل قوله تعالى على لسان الدهريين: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

إن الآية تعبر عن العرب الذين أنكروا البعث بعد الموت ، ولم ينكروا وجود الله ، أما الذين أنكروا وجود الله فهم الدهريون من الفلاسفة الذين أنكروا وجود الله ، فى غير البيئة العربية على اعتبار أن القرآن لم ينزل للعرب خاصة وإنما للناس كافة ، ومن ثم فهو يعبر عن عقائد العرب وغير العرب .

يقول ابن كثير فى تفسيره للآية السابقة: **«هذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد وتقوله الفلاسفة اللإلهيون منهم، وتقوله الفلاسفة الدهرية المنكرون للصانع»** [(٣)] .

والألوسي يذكر في تفسيره لهذه الآية أن الذين ورد ذكرهم فيها **«معترفون بوجود الله سبحانه وتعالى عما يقولون علوًا كبيراً»** [(٤)].

وهذا التفريق من ابن كثير والألوسي يوضح لنا أن العرب لم تنكر وجود

---

(١) نهاية الإقدام للشهرستاني (ص ١٢٣- ١٢٤).
(٢) المصدر السابق (١٢٣/ ١٢٤) وانظر موافقة صريح المعقول للمنقول (٧٣/٧).
(٣) تفسير ابن كثير (١٥٠/٤-١٥١).
(٤) روح المعاني للألوسي (١٣٥/٢٥).

الله حتى الدهريين منهم لأننا لم نعثر على نصوص فى خطب العرب وأشعارهم ينكرون فيها الله عز وجل، فكل ما ورد عنهم شعرًا أو خطبًا فيه ذكر للدهر وتقلباته وغدره وفي الوقت نفسه نجد في أشعارهم ذكراً لله جل وعلا على اعتبار أنه الفاعل المتصرف المدبر للأمور كلها ، مع اعتقادهم فى الشركاء له سبحانه .

ولنأخذ مثالاً يوضح لنا أن العرب لم تنكر وجود الله وإن نسبت بعض الحوادث للدهر .

يقول زهير بن أبى سلمى :

بدا لى أن الناس تفنى نفوسهم وأموالهم ولا أرى الدهر فانياً

وفى نفس القصيدة يقول :

بدا لى أن الله حق فزادنى إلى الحق تقوى الله ما قد بدا ليا

ألم تر أن الله أهلك تبعًا وأهلك لقمان بن عاد وعاديا

وأهلك ذا القرنين من قبل ما ترى وفرعون أردى جنده والنجاشيا [1]

في قصيدة واحدة ينسب البقاء إلى الدهر ولكنه فى الوقت نفسة يرد الأمور كلها لله .

ويبدو أن جمع العرب بين الاعتراف بوجود الله وبين نسبتهم الحوادث للدهر جرى مجرى العادة لا مجرى العقيدة فهم من ناحية العقيدة يعترفون بوجود الله ويشركون معه المظاهر الأخرى من أصنام وكواكب وغيرها ، ومن ناحية العادة يذكرون الدهر وينسبون إليه بعض الأمور ، بل ويسبونه أحياناً كما يفعل البعض الآن فى مثل قولهم **«الدنيا لا تترك أحداً فى حاله»** أو **«هكذا الدنيا»** حين يخبر البعض بموت شاب أو فتاة أو ذهاب مال وخلافه ، مع اعتقاد القائل تمام الاعتقاد بالله الواحد وأن الدنيا لا تفعل ولا تنفع ولا تضر .

ومع هذا التقرير لا ينبغى أن يفهم كلامنا على أنه ليس هناك من ينكر

(١) شرح زهير بن أبي سُلمى (ص ٢٠٩).

وجود الله .. كلا فهناك بعض الشراذم فى كل عصر ومصر ، فسدت فطرهم ، وأنكروا وجود الله ، ولكن نؤكد أنه ليس هناك من ينكر وجود الله فى البيئة العربية حين نزول الوحى ، بنصوص القرآن الكريم ، وما ورد عن الأئمة فى هذا الشأن ، وسوف نفرد كلاماً مستقلاً نناقش فيه الماديين القدامى والمعاصرين الذين ينكرون وجود الله ويثيرون الشبهات ، فى وجه المؤمنين الموحدين .

* * *

المبحث الثانى

حديث القرآن الكريم عن وجود الله

كما يعبر بحق الإمام الدكتور عبد الحليم محمود «**أنه يمكن أن يؤخذ من القرآن أدلة على وجود الله وإن لم يكن ذلك هدفاً من الأهداف القرآنية وإذا نسقنا الأدلة ونظمناها فإنما يرجع ذلك إلى استنتاج من نصوص هدفها الصحيح بيان عظمة الله وتدبيره وهيمنته على كل ما فى العالم من صغيرة وكبيرة ، وبيان عناية الله ورعايته وإحكامه المحكم وإبداعه المتقن لكل ما يسرى فى العالم من قوانين ونواميس ، هذا فى الحقيقة هو هدف القرآن من النصوص التى يتحدثون عنها بمناسبة إثبات وجود الله**» (١).

وسوف نعرض طرفاً من تلك النصوص التي استقى منها العلماء الأدلة على وجود الله فيما يعرف بتوحيد الربوبية أى أن خالق الأشياء كلها هو الله عز وجل .

يقول سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة :٤-٧].

هذه الآيات تقرر أن السموات والأرض وما فيهما مخلوق وأن الذي خلق هذه الأشياء كلها هو الله تعالى وأنه جل شأنه مدبر هذا الوجود كله فهو الذي يوجد ويعدم ويعطي ويمنع ويعز ويذل ، لأنه هو عالم الغيب والشهادة وهو

(١) التفكير الفلسفي في الإسلام (ص ٧٢).

العزيز الذي لا يغلب الرحيم بخلقه الذي أحسن كل شيء خلقه وأبدعه [١].

ويقول سبحانه: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة :٥٧-٦١].

ويقول عز وجل: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة :١٦٤].

ويقول سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور :٣٥-٣٦].

ويقول سبحانه: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [إبراهيم :١٠].

والقرآن الكريم يؤكد الدلالة من الخلق على الخالق لأن الشيء لا يمكن أن يوجد بدون علة ولا يمكن أن يوجد نفسه، ولم يثبت أن أحدًا ادعى أنه خلق الكائنات أو خلق نفسه.

إن من ينظر إلى ما ترشد إليه هذه الآيات وغيرها كثير ، نظرًا سليمًا بعيدًا عن التعصب والهوى ومن يبحث وينقب في عجائب الصنعة المشاهدة وبديع إتقانها ليدرك إدراكًا قويًا ويؤمن ويصدق بأن لهذا العالم ربًّا خالقًا.

وقد وردت في القرآن الكريم أدلة ساقها الله على لسان بعض أنبيائه ورسله استنبط العلماء منها الأدلة على وجود الله، مثل الحوار الذي دار بين موسى عليه السلام وفرعون عليه اللعنة.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) في العقيدة الإسلامية (ص١٤) لأستاذنا الدكتور عوض الله حجازي. مطبوعات جامعة الإمارات.

وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء :٢٣-٢٩].

في هذه الآيات استدل موسى عليه السلام على وجوده سبحانه بدلالة الصنعة على الصانع والأثر على المؤثر ولكن فرعون لما قامت عليه الحجة، لجأ إلى منطق القوة والتهديد والوعيد ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء :٢٩].

وسوف نكتفي ببعض هذه الأدلة، ونرجئ القسم الأكبر منها عند عرضنا لشبهات الماديين والملحدين المنكرين لوجود الله من القدامى والمحدثين.

وقد سار السلف رضوان الله عليهم على طريقة القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ، فها هو الإمام أبو حنيفة جاء إليه رجل فقال: ما الدليل على الصانع؟ قال: «**أعجب دليل النطفة التي في الرحم والجنين في البطن يخلقه الله في ظلمة البطن وظلمة الرحم قالبًا منطبعًا ليطبع الجنين فيه فيلزم أن يكون الولد إما ذكرًا وإما أنثى، ومرة توأمين وطورًا ثلاثة، وتريد أن تلد فلا تلد، وتريد الذكر فتكون الأنثى، وتريد الأنثى فيكون الذكر على خلاف اختيار الأبوين، فعرفنا قطعًا أنه قدرة قادر عليم حكيم وأن الفلاسفة ينادون من مكان بعيد**» (١).

والإمام الشافعي يستدل على وجود الله «**بورق الفرصاد (التوت) طبعها ولونها سواء وريحها، فيأكلها دود القز فيخرج من جوفها الإبريسم ويأكلها النحل فيخرج من جوفها العسل، وتأكلها الشاة فيخرج من جوفها البعر، فانظر كيف تغيرت الحالات عليها فعرفت أنه فعل صانع عالم قادر يحول عليها الأحوال ويغير التارات**» (٢).

وهذا الاستدلال هو استدلال العلماء بالله الذين يأخذون من عجيب خلق الله سبحانه وتعالى الدليل على وجوده ووحدانيته.

---

(١) مفيد العلوم ومبيد الهموم للخوارزمي (ص١٢).

(٢) المصدر السابق (ص ١٢).

المبحث الثالث

استدلال المتكلمين على وجود الله:

إذا كانت الأدلة على وجود الله واضحة في الكون والآفاق والأنفس فإن علماء الكلام دافعوا قديمًا عن العقيدة الإسلامية، وصاغوا أدلة يدافعون بها عن وجود الله في وجه الملحدين.

يقول أستاذنا الدكتور يحيى هاشم: «**لقد أرغمت التحديات متكلمي الإسلام على توجيه أنظارهم إلى المباحث التي يدور فيها الاحتكاك بين الإسلام وتلك العقائد، لقد كان لهذا العلم في هذا المجال هدف جليل تمثل في المحافظة على عقائد المسلمين وكان عليه أن يواجه أعتى أعداء الإسلام وأخطرهم وأقواهم سلاحًا وأشدهم تمكنًا وأكثرهم تحالفًا وأوسعهم تنوعًا**» (١).

وقد صاغ المتكلمون أدلتهم على وجود الله، وأشهر ما يستدلون به:

دليل الحوادث:

يقول الإمام الأشعري: من قصد إلى برية لم يجد فيها قصرًا مبنيًّا فانتظر أن يتحول الطين من حالة الآجر وينتضد بعضه على بعض بغير صانع ولا بان كان جاهلاً وإذا كان تحول النطفة علقة ثم مضغة ثم لحمًا ودمًا وعظمًا أعظم في الأعجوبة كان أولى أن يدل على صانع النطفة ونقلها من حال إلى حال (٢).

والإمام الباقلاني من المتكلمين يستدل بدليل الحدوث وتغير الموجودات من حال إلى حال، ويعزو هذا الاستدلال إلى الخليل إبراهيم عليه السلام في حجاجه مع قومه ذلك بأنه لما رآها متغيرة من حال إلى حال علم أنها محدثة

(١) انظر: عوامل وأهداف نشأة علم الكلام (ص ٣١٠) طبعة مجمع البحوث الإسلامية.
(٢) اللمع في الرد على أهل البدع للأشعري (ص ١٤٢) تحقيق د/ حمودة غرابة.

متطورة مخلوقة لله سبحانه وتعالى وأن الله هو الذي خلقها فقال عند ذلك: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام :٧٩][(١)].

ويعلق الباقلاني على قول النبي ﷺ فيما رواه البخاري عن عمران بن حصين قال: إني عند النبي ﷺ فدخل ناس من أهل اليمن فقال: «**اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم**»، قالوا: قبلنا جئنا لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان. قال: «**كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء**» [(٢)].

يعلق الباقلاني على هذا الحديث بقوله: «**قد بيَّن نبينا ﷺ** بأحسن بيان يتضمن أن جميع الموجودات سوى الله محدثة مخلوقة» [(٣)].

ويلاحظ أن الباقلاني يرجع إلى نصوص الكتاب والسنة في الاعتماد على حدوث العالم وأن محدثه هو الله عز وجل.

يقول الشهرستاني: «**وقد سلك المتكلمون طريقين في إثبات الصانع تعالى وهو الاستدلال بالحوادث بإمكان الممكنات على مرجح لأحد طرفي الإمكان ويدعي كل واحد في جهة الاستدلال ضرورة وبديهة**» [(٤)].

ودليل الحدوث الذي يستدل به المتكلمون صياغته كالآتي:

العالم ينقسم إلى جواهر وأعراض ولا يخرج عنهما.

والأعراض حادثة والدليل على حدوثها أننا نشاهدها موجودة بعد أن لم تكن كحركة الجسم بعد سكونه فهذه الحركة ثابتة بالمشاهدة، وسكونه

---

(١) انظر: الإنصاف للباقلاني (ص ٣٠-٣١).

(٢) صحيح البخاري، باب: وكان عرشه على الماء (٩/١٥٠) طبعة الشعب.

(٣) الإنصاف للباقلاني (ص ٣٠- ٣١).

(٤) نهاية الإقدام (ص ١٢٤- ١٢٥).

حادث ؛ لأنه بمجيء الحركة قد انعدم ولو كان قديمًا لاستحال عليه العدم ؛ لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه.

والجواهر كذلك حادثة لأنها لا تخلو عن الحوادث، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث أما أنها لا تخلو عن الحوادث فلأنها لا تخلو عن الحركة والسكون، وهما حادثان فالجواهر لا تخلو عن الحوادث [١].

إذا ثبت هذا فكل حادث لا بد له من محدث، وهذا بالبداهة ، ولا يصح أن يكون المحدث للعالم نفسه إذ أنه يصبح حينئذ متقدمًا على نفسه ومتأخرًا عنها مخلوقًا وهذا باطل؛ لأن كون الشيء الواحد متقدمًا على نفسه ومتأخرًا عنها في وقت واحد باطل بالبداهة.

هذا المحدث للعالم الموجد له لا بد أن يكون مغايرًا له في صفاته فلا يكون حادثًا بل يجب أن يكون قديمًا.

هذا المحدِث للعالم هو الله تعالى [٢].

والاستدلال بحدوث العالم على وجود الله تعالى، اتفق المتكلمون عليه من معتزلة وأشاعرة وماتريدية [٣]، على خلافات يسيرة في صياغة هذا الدليل فيما بينهم.

* * *

(١) انظر: الوحدانية لأستاذنا الدكتور بركات دويدار (ص ٣٤٩- ٣٥٠).

(٢) انظر: في العقيدة الإسلامية (ص١٥- ١٦) لأستاذنا عوض الله حجازي.

(٣) الوحدانية (٣٥٠) وانظر: المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية (ص٣٥- ٣٦) لأستاذنا الدكتور يحيى هاشم.

المبحث الرابع

استدلال الفلاسفة على وجود الله «دليل الإمكان»

يستدل الفلاسفة بدليل الإمكان على وجود الله، ومفاد هذا الدليل أن الممكنات الموجودة ممكنة بداهة ؛ لأنها مركبة من الممكن ، والمركب من الشيء الممكن يكون ممكنًا، وكل ممكن يحتاج إلى سبب يعطيه الوجود، ويترتب على هذا أن جملة الممكنات محتاجة بتمامها إلى سبب يوجدها ويعطيها الوجود.

هذا السبب إما أن يكون عينها أو جزء منها أو غيرها.

أولًا: لا يجوز أن يكون السبب عينها؛ لأنه يلزم عليه تقدم الشيء على نفسه وهذا باطل.

ثانيًا: لا يجوز أن يكون السبب جزء من الممكنات ؛ لأنه يترتب عليه أن يكون الشيء علة لنفسه ولما سبق، وهذا باطل.

ثالثًا: إما أن يكون سبب الممكنات غيرها، وهذا الغير:

١- إما أن يكون هو المستحيل وهذا باطل؛ لأن المستحيل معدوم وغير موجود وفاقد الوجود لا يعطي الوجود.

ب- إما أن يكون الذي سبب الموجودات هو واجب الوجود الذي أعطى الممكنات وجودها، وهذا الواجب الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى هو الله سبحانه [١].

يقول ابن سينا: «كل موجود إذا التفت إليه من حيث ذاته من غير التفات إلى غيره إما أن يكون بحيث يجب له الوجود في نفسه أو لا يكون.

(١) انظر: في صياغة دليل الفلاسفة في العقيدة الإسلامية (ص١٩- ٢٠).

فإن وجب فهو الحق بذاته الواجب الوجود من ذاته وهو القيوم.

والثاني: أي الموجود الذي لا يجب له الوجود من ذاته وهو الممكن. فكل موجود:

إما واجب الوجود بذاته، وهذا مستحيل عليه العدم.

وإما ممكن الوجود بذاته، وهذا يحتاج إلى غيره لأن الممكن لا وجود له من ذاته.

فما حقه في نفسه الإمكان ليس يصير موجودًا من ذاته فإنه ليس وجوده من ذاته أولى من عدمه من حيث هو ممكن فإن صار أحدهما أولى فلحضور شيء أو غيبته فوجود كل ممكن هو من غيره» (١).

بين المتكلمين والفلاسفة:

ينطلق المتكلمون من دليل الحدوث إلى أن العالم حادث وكل حادث لا بد له من محدِث، والمحدث للعالم هو الله عز وجل.

أما الفلاسفة فعندهم: «**أن الموجودات كلها ما عدا الله سبحانه ممكنة ولإمكانها تحتاج إلى غيرها في وجودها، وغير الممكن هو الواجب بذاته لأن الواجب بغيره ممكن من حيث ذاته واحتياجها ثابت سواء أكانت قديمة أم حادثة لأنه لا مانع عندهم أن يكون الشيء قديمًا بالزمان أي لا أول لوجوده، حادثًا بالذات أي يحتاج إلى غيره في وجوده**» (٢).

نقد ابن تيمية لدليلي المتكلمين والفلاسفة:

تناول ابن تيمية ممثل المدرسة السلفية دليل المتكلمين والفلاسفة على وجود الله عز وجل بالنقد مبينًا أن طريقة القرآن الكريم هي الأسلم والأقوم

(١) انظر: الإشارات لابن سينا (ص١٩- ٢٠) وانظر: الوحدانية (ص٣٥٨).
(٢) الوحدانية (ص٣٥٨).

وأن الناس لا يحتاجون إلى هذه المقدمات ليصلوا إلى وجود الله، يقول:

«إن إثبات الصانع في القرآن بنفس آياته التي يستلزم العلم بها العلم به كاستلزام العلم بالشعاع: العلم بالشمس من غير احتياج إلى قياس كلي يقال فيه وكل محدَث فلا بد له من محدِث أو كل ممكن فلا بد له من محدِث أو كل ممكن فلا بد له من مرجح أو كل حركة فلا بد لها من علة غائية أو فاعلية ومن غير احتياج إلى أن يقال سبب الافتقار إلى الصانع هل هو الحدوث فقط أو الإمكان؟» (١).

ثم يقول: **«إن الإنسان يعلم فقر نفسه وحاجتها إلى خالقه من غير أن يخطر بباله أنها ممكنة، والممكن الذي يقبل الوجود والعدم أو أنها محدثة والمحدث مسبوق بالعدم بل قد يشك في قدمها أو يعتقده وهو يعلم فقرها وحاجتها إلى بارئها، والقلب بفطرته يعلم ذلك وإن لم يخطر بقلبه وصف الإمكان والحدوث.**

وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور :٣٥].

قال جبير بن مطعم:

«لما سمعتها أحسست بفؤادي قد تصدع وهو استفهام إنكار يقول أوجدوا من غير مبدع؟ فهم يعلمون أنهم لم يكونوا من غير مكوِّن، ويعلمون أنهم لم يكونوا نفوسهم، وعلمهم بحكم أنفسهم معلوم بالفطرة بنفسه» (٢).

* * *

(١) انظر: مجموع الفتاوي توحيد الربوبية (٩/٣).
(٢) توحيد الربوبية (١٠/٢- ١١).

المبحث الخامس

شبه منكري الألوهية والرد عليهم

تمهيد:

في هذا المبحث نعرض شبه المنكرين للألوهية، وخطتنا في هذا المبحث أن نعرض الشبهة متتبعين من قال بها من الماديين القدامى والدهريين والماديين المحدثين، جامعين العناصر التي يشترك فيها القدامى مع المعاصرين، ثم تفنيد تلك الشبهة أولاً من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة مستأنسين بفهوم علماء الإسلام واستنباطهم من القرآن والسنة في الرد على الماديين إن في القديم أو الحديث، ثم بعد ذلك نعمد إلى إبراز موقف العلم الحديث من الشبهة التي عرضها الماديون، ولكن لنثبت بطلان بعض الآراء العلمية بما يناقضها في نفس المجال وبنفس المنهج العلمي وقد طبقنا ذلك المنهج العلمي في نقد القائلين بقدم المادة، وفي نقد القول بالصدفة في خلق الكون، وأخيرًا في نقد نظرية التطور.

وهذا النقد لمنكري الألوهية في شبههم الثلاث من العلم الحديث لا يعد تدعيمًا لوجهة النظر الإسلامية بقدر ما هو اعتراف بالحقائق التي جاء بها القرآن الكريم [١].

وقد قسمت شبه المنكرين إلى ثلاث شبه:

الشبهة الأولى: ادعاء أزلية الكون وصدوره عن المادة بدون حاجة إلى خالق.

---

(١) انظر: المنهاج القرآني (ص ٧٧، ٧٨) لأستاذنا الدكتور عبد الله الشاذلي الناشر المكتبة القومية الحديثة بطنطا.

الشبهة الثانية: القائلين بالصدفة. أي أن الكون خلق بالصدفة وليس من الله.

الشبهة الثالثة: القائلين بالتطور.

وهذه الشبه الثلاث، تختلف في أشكالها وتتحد في مضمونها الذي ينتهي إلى إنكار الخالق سبحانه وتعالى، وكان يمكن أن نكتفي بعرض الشبهة الأولى والرد عليها، ولكن أردنا أن نحاصر الماديين في كل جزئية من الجزئيات التي زعموا أنها تؤيد إنكار وجود الله.

ولقد حاولنا في الرد على شبه المنكرين لوجود الله أن نسهم في الدفاع عن العقيدة الإسلامية آملين أن نضع لبنة في صرح بناء علم كلام إسلامي جديد يستخدم مصطلحات العصر الحديث مرتكزًا في الوقت ذاته على الكتاب والسنة كما فعل أسلافنا عليهم رضوان الله.

* * *

عرض شبه القائلين بأزلية المادة والرد عليهم

الشبهة الأولى

أزلية الكون وقيامه بنفسه بدون خالق

إن ادعاء قيام الكون بنفسه ووجوده منذ الأزل، شبهة قال بها الماديون قديمًا وحديثًا، فالقدامى زعموا أن العالم قديم وأنه نشأ من عناصر مادية على اختلاف فيما بينهم في تحديد هذه العناصر بين الماء والهواء والنار والتراب أو هذه العناصر مجتمعة كما ذهب «**أنبادوقليس**» من الفلاسفة اليونان [١]. وانتقلت هذه الآراء إلى من عرفوا بالدهرية في المجتمع الإسلامي [٢]، الذين ذهبوا إلى القول: «**بقدم العالم وأزليته وأنكروا العلة الفاعلية، وكانوا لا يقرون إلا بما أوجده العيان أو ما يجري مجرى العيان**» [٣].

واستمرت هذه النزعة المادية التي تقول بقدم العالم واكتفائه بنفسه على نحو آلي بدون حاجته إلى إله، إلى العصر الحديث الذي دعمت التجارب العلمية فيه النزعة المادية [٤]، وتساءل الطبيعيون لم لا تمد المادة نفسها إلى غير نهاية فنعتبرها الله؟

ولماذا نبحث للكون عن علة مفارقة له؟ وعبر أحد الماديين عن ذلك بقوله: «**إن كل شيء يفسر بالمادة والحركة وأنهما أزليتان أبديتان والعالم مدبر بقوانينهما وأن الكون ليس مدبرًا من إله**» [٥].

---

(١) انظر الفلسفة اليونانية: يوسف كرم (ص ١٢- ١٩، ٣٥ - ٤٣)، وقصة الفلسفة لديورانت (٧ ، ٨، ٢٤).

(٢) انظر: تاريخ الفلاسفة في الإسلام: دي بور (ص ١٥ ، ١٦).

(٣) انظر: الحيوان للجاحظ (٨٩/٤، ٩٠)، (١٢/٧، ١٣) وإخوان الصفا (٤٥٥/٢)، وانظر: مفيد العلوم ومبيد الهموم للخوارزمي (ص ١٠٦، ١٠٧)، المنقذ من الضلال للإمام الغزالي (ص٩٤).

(٤) انظر: مدخل إلى الفلسفة الحديثة (ص٣٨، ٣٩، ٢٧٠، ٢٧١).

(٥) انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة (ص١٩١، ١٩٢)، ومدخل إلى الفلسفة (١٦٤، ١٦٥)، وانظر: الوجودية المؤمنة والوجودية الملحدة (ص ٦٢)، وانظر: العلم في منظوره الجديد (ص ٢٣- ٥٧).

وقامت فلسفات مادية كالماركسية التي تبنت قول الماديين الأوائل في نظرتهم إلى الكون وظهر هذا في تعليق «لينين» على عبارة «هيرقليطس» هذا العالم الذي هو سواء بالنسبة للجميع لم يخلقه إله من الآلهة، ولا واحد من البشر، ولكنه كان دائمًا كما هو اليوم وسيستمر دائمًا نارًا بمعايير لاندلاعها، ومعايير لخمودها [١].

يقول «لينين» تعليقًا على هذه العبارة عرض ممتاز لمبادئ المادية الديالكتيكية [٢]، ووصل الأمر بالماديين إلى أن أنزلوا المادة مكان الله وذهبوا إلى أن أهم الصفات التي يوصف بها الله وهي القدم والخلق وجدناها تضاف عادة للمادة فالله أمره نافذ وكذلك القوانين الآلية الميكانيكية [٣].

ويمكن وضع تلك الشبه في نقاط محددة هي:

أولًا: العالم قديم وأوجد نفسه بدون علة خارجية.

ثانيًا: لا وجود للإله.

ثالثًا: اعتبار أن المادة هي الله.

وسنفند تلك الشبه:

أولًا: بما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية.

ثانيًا: بما استنبطه علماء الإسلام من القرآن والسنة.

ثالثًا: بما انتهى إليه العلم الحديث في شأن قدم المادة.

رابعًا: مقارنة بين عبادة المادة، وعبادة الله.

---

(١) فلاسفة الإغريق (ص ٢٨).

(٢) الدفاتر الفلسفية للينين نقلاً عن النظرية المادية في المعرفة (ص ٦٥) روجيه جارودي وانظر: الفلسفة الماركسية اللينينية. ترجمة لويس اسكاروس، دار الثقافة ١٩٨١م.

(٣) انظر: أسس الفلسفة (ص ١٥٢) للدكتور توفيق الطويل، مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثانية ١٩٥٥م.

أولًا: لقد نزل القرآن الكريم بخطاب شامل للبشرية كلها فكان يواجه المشرك كما كان يواجه الجاحد المنكر للألوهية وكان يواجه اليهود والنصارى.

وإذا كان وجود الله فطرة فُطر الناس عليها، فإن هناك بعض التراكمات على تلك الفطرة تحجب الإنسان عن معرفة الله رب العالمين، وكذلك فإن الأدلة القرآنية راعت في المقام الأول أن تزيل هذه التراكمات واستثارت ملكات الإنسان ووجهته نحو ربه عز وجل، ومع إثارة الفطرة اهتمت الأدلة القرآنية بلفت نظر الإنسان إلى الكون ونظامه ودقته وإبداعه، ومن هنا كانت أدلة القرآن الكريم هي جماع الأدلة وهي منبع الأدلة التي تمخضت عنها أقوال الحكماء في هذا الباب [١].

أ- دلالة الاختراع:

وهذه الأدلة تعني إثبات أن الله عز وجل خلق الكون كله لا على مثال سابق، وتهدف هذه الأدلة إلى إثبات حدوث العالم والرد على القائلين بقدمه وأزليته وهذه الآيات على سبيل المثال لا الحصر هي قوله تعالى:

١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة :٢١] .

٢- ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة :١٦٤].

٣- ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا

(١) الفلسفة القرآنية (ص ٩٩) للعقاد، دار الإسلام، القاهرة، وانظر: الألوهية في الفكر الإسلامي (ص٧٥، ٧٦).

وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء :٣٠].

٤- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت :١٩-٢٠].

٥- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة :٤] .

٦- ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ۖ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ۖ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت :٩-١١].

٧- ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور :٣٥-٣٦].

٨- ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة :٥٧].

هذه الآيات تقرر أن الكون لم يكن ثم كان بإرادة الله عز وجل وهذا الخلق تم بإرادته ومشيئته في الوقت الذي حدده، يقول تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص :٦٨].

وذلك لأن الله تعالى فعال لما يريد، وهذا الخلق والاختراع تم بالأمر «كن» يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل :٤٠].

هذه الآيات مجتمعة تقرر أن الحياة لم تكن ثم كانت بأمر الله في الوقت الذي أراده ولفظ خلق إشارة إلى التكوين [١]، ويقرر المفسرون في هذه

(١) الألوهية في الفكر الإسلامي (ص ١١١).

الآيات أن السموات والأرض كانتا معدومتين فأوجدهما الله، والممكنات باعتبار ذاتها وحدها تكون معدومة واتصافها بالوجود لا يكون إلا من واجب الوجود وهو الله تعالى [١].

والقرآن الكريم يؤكد الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق لأن الشيء لا يمكن أن يوجد بدون علة ولا يمكن أيضًا أن يكون هو علة صياغة نفسه [٢]، ولذلك ركز الله رب العالمين على خلقه للأشياء وإيجادها من العدم، ولم يثبت أن أحدًا ادعى أنه أوجدها، وهذه الآيات التي تحدثت عن خلق السموات والأرض من لا شيء كانت هي الملهمة لما صاغه علماء الإسلام من الأدلة على وجود الله سبحانه وتعالى.

يقول الأشعري: «**إن سأل سائل فقال: ما الدليل على أن للخلق صانعًا صنعه ومدبرًا دبره؟ قيل له: الدليل على ذلك أن الإنسان الذي هو في غاية الكمال والتمام كان نطفة ثم علقة ثم لحمًا ودمًا وعظمًا، وعلمنا أنه لم ينقل نفسه من حال إلى حال، وإذا كان تحول النطفة علقة ثم مضغة ثم لحمًا ثم دمًا وعظمًا أعظم في الأعجوبة كان أولى أن يدل على صانع صنع النطفة ونقلها من حال إلى حال، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨-٥٩] فما استطاعوا أن يقولوا بحجة أنهم يخلقون ما يمنون**» [٣].

ويرد على القائلين بقدم النطفة بناء على افتراض سؤالهم «**فإن قالوا فما يؤمنكم أن تكون النطفة لم تزل قديمة؟ قيل لهم: لو كان ذلك ما ادعيتم لم يجز أن يلحقها الاعتمال، والتأثير ولا الانقلاب والتغيير لأن القديم لا يجوز انتقاله وتغيره**» [٤].

فالأشعري قد استخدم دليل الحدوث والعناية للدلالة على أن كل ما سوى الله حادث وليس بقديم.

---

(١) انظر: الزمخشري (٢/٥٧٠)، وأبو السعود (٣/٥١٤، ٥١٥)، والألوسي (١٧/٣٤، ٣٥).
(٢) التفكير الفلسفي في الإسلام (ص ٧٥).
(٣) اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع (ص ١٨).
(٤) السابق (ص ١٩).

وسنجد أن المدرسة الأشعرية تستخدم دليل الحدوث في الاستدلال على عدم قدم العالم، والإمام «**الباقلاني**» استدل أيضًا بدليل الحدوث وتغير الموجودات من حال إلى حال وعزا هذا الاستدلال إلى الخليل إبراهيم عليه السلام في حجاجه مع قومه ذلك بأنه لما رآها متغيرة من حال إلى حال علم أنها محدثة متطورة مخلوقة لله تعالى وأن الله هو الذي خلقها فقال عند ذلك:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام :٧٩][(١)].

ويستطرد الباقلاني فيعلق على قول رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري عن عمران بن حصين قال: إني عند النبي ﷺ إذ جاء قوم من بني تميم قال: «**البشرى يا بني تميم**»، قالوا: بشرتنا فأعطنا. فدخل ناس من أهل اليمن فقال: «**اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم**»، قالوا: قبلنا جئنا لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان؟ قال: «**كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء**» [(٢)].

يعلق الباقلاني على هذا الحديث بقوله: «**قد بيَّن نبينا ﷺ** بأحسن بيان يتضمن أن جميع الموجودات سوى الله محدثة مخلوقة» [(٣)].

وقد أطبق علماء الإسلام على الاستدلال بحدوث المخلوقات من لا شيء على وجود الخالق سبحانه وتعالى [(٤)]. وابن رشد في كتابه «**مناهج الأدلة**» يبين أن الأدلة على وجود الله تعالى التي دعا إليها الشرع واعتمدها صحابة رسول الله ﷺ تنحصر في جنسين:

---

(١) انظر: الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به (ص ٣٠، ٣١) بتصرف ، طبعة الخانجي ١٩٦٣م.

(٢) صحيح البخاري، باب: وكان عرشه على الماء (٩/١٥٠) طبعة الشعب.

(٣) الإنصاف (ص ٣٠، ٣١) بتصرف.

(٤) انظر: أصول الدين للبغدادي (ص ٧٠) وانظر: الاقتصاد في الاعتقاد (ص ٢٩- ٤١).

الأول: دليل العناية أي عناية الله بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله.

الثاني: دليل الاختراع: أي اختراع الحياة في الجماد والإدراكات الحسية والعقل ومن الآيات التي تتحدث عن الاختراع خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة [١].

والآيات التي أوردناها من هذا النوع فهي تقرر أن الكون مخلوق وله بداية ونهاية وأن مادته ليست أزلية وأن الله بدأه من لا شيء ، وفي هذه الآيات من الأسرار ما لا يحصى لأن العقول لا تستطيع أن تدركها، إذ إن كيفية الخلق والإعادة من الأمور التي اختص بها الحق سبحانه [٢]، وقد أفرد لهذه الطريقة ابن تيمية صفحات كثيرة من مؤلفاته، يذكر أن الدلالة بالخلق على وجود الله وتوحيده طريقة الأنبياء عليهم السلام ، وقد استدل بهذه الدلائل الخليل، وموسى عليهما السلام [٣]، إذ إن العلم بافتقار المحدَث أبين في العقل وأبْدَه له.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور :٣٥].

يقول جبير بن مطعم: لما سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها أحسست بفؤادي قد انصدع وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة :٥٨-٥٩].

إذ كان كل من القسمين: وهو كونهم خلقوا من غير خالق.

وكونهم خلقوا أنفسهم معلوم الانتفاء بالضرورة. فإن الإنسان يعلم بالضرورة أنه لم يحدث من غير محدث وأنه لم يحدث نفسه، فلما كان العلم

(١) منهاج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد (ص ١٥٠، ١٥١)، تحقيق الدكتور محمود قاسم الطبعة الثانية، مكتبة الأنجلو ١٩٦٤م.

(٢) انظر: الألوهية في الفكر الإسلامي (ص ٩١) وصراع المذهب والعقيدة (ص ٢١٥، ٢١٦).

(٣) انظر: بتصرف دقائق التفسير لابن تيمية (٥/٢٠٢- ٢٠٤) الطبعة الثانية ١٩٨٤م.

بأنه لا بد له من محدِث وأن محدِثه ليس إياه علمًا ضروريًّا ثبت بالضرورة أن له محدِثًا غيره وكل ما يقدر فيه أنه مخلوق فهو كذلك كالسماوات والأرض وغيرهما لأن الخلق يتضمن الحدوث والتقدير ففيه معنى الإبداع والتقدير [١].

وقد استدل العلماء بهذه الآيات في مناقشتهم للقائلين بقدم العالم من الدهريين ببطلان الترجيح بلا مرجح، والدور، والتسلسل [٢].

وإذا ثبت بالقرآن الكريم والسنة أن العالم حادث وأن الذي خلقه هو الله ، فإن العلم الحديث يثبت هو الآخر أن الكون له بداية وله نهاية وذلك عن طريق علم الفلك وعلم الفيزياء.

يقول أحد العلماء: «**إن أهم اكتشاف علمي في القرن العشرين أن الكون أصبح قابلًا للبحث باستخدام علمي الفيزياء والفلك**» [٣].

أولاً: دلالة علماء الفيزياء على حدوث العالم:

إن النظرة التي استند إليها الماديون في القول بأزلية المادة وإن الكون قائم بنفسه بدون خالق له أصبحت بعد الاكتشافات العلمية المثيرة تسمى بالنظرة القديمة.

أما النظرة الجديدة فإنها تثبت أن المادة ليست أزلية وأن الكون له بداية وعلة أولى نشأ عنها. يقول الفيزيائي «**أدموند ويتبكر** Edmund whittaker **(ليس هناك ما يدعو إلى أن نفترض أن المادة والطاقة كانتا موجودتين قبل الانفجار العظيم وأنه حدث بينهما تفاعل فجائي ، فما الذي يميز تلك اللحظة عن غيرها من**

(١) انظر: بتصرف موافقة صريح المعقول للمنقول لابن تيمية (١١٣/٣، ١١٤).
(٢) انظر: المسائل الخمسون في أصول الدين للرازي (ص ٢٥- ٢٧)، وانظر: الإنصاف (ص ١٧، ٣٠- ٣٣)، وانظر: موافقة صريح المعقول للمنقول (١١٧/٣، ١١٨).
(٣) العلم في منظوره الجديد (ص ٥٩).

اللحظات في الأزلية؟ والأبسط أن نفترض خلقًا من العدم أي إبداع الإرادة الإلهية للكون من العدم» [١].

هذا هو العلم الذي يقرر أن الكون حادث ووراءه إرادة أخرجته من العدم وإن اكتشاف بعض القوانين العلمية الحديثة لينسف القول بأزلية المادة نسفًا، لإثبات حدوثها وصدورها عن إله حكيم.

من هذه القوانين ما يعرف بالقانون الثاني للديناميكا الحرارية ومفاد هذا القانون أن المادة إذا ضغطت سخنت وارتفعت درجة تعادلها الحراري وكلما ازداد عدد الانكماشات العظيمة للكون ازدادت حرارته ودرجة تعادله الحراري، وبما أن درجة حرارة الكون ودرجة تعادله الحراري محدودتان في الوقت الراهن فلا بد من أنه كانت له بداية، وإن مظاهر الكون المتمثلة في الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الحياة كلها دليل واضح على أن أصل الكون وأساسه يرتبطان بزمان بدأ من لحظة معينة، فهو إذا حدث من الأحداث، ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية، فالقانون يثبت أن الكون ما دام فيه حرارة فلا يمكن أن يكون أزليًا ؛ لأن الحرارة لا توجد بنفسها، ولو كان أزليًا لكان باردًا وكان قد استهلك طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط فيه [٢].

ثم إن هناك مواد مشعة في الكون وهي تفقد أجزاء منها في كل فترة زمنية بانتظام وتتحول إلى مواد أخرى غير مشعة ولو أن الكون أزليًا لكانت هذه المواد المشعة قد تحولت بكاملها [٣].

ويؤكد هذا الدكتور «**بول كلارنس أيرسولد**» أستاذ الطبيعة الحيوية ومدير

---

(١) العلم في منظوره الجديد (ص ٦٤).

(٢) انظر: العلم في منظوره الجديد (ص ٦٣)، وانظر الله يتجلى في عصر العلم (ص ٦)، القرآن يتحدى (ص ٣٩٥، ٣٩٦)، وانظر: الله جل جلاله (ص ١٦).

(٣) توحيد الخالق (٣/٢٦، ٢٧) عبد المجيد الزنداني، دار المجتمع ١٩٨٧م.

قسم النظائر والطاقة الذرية يقول: «**إن الأمر الذي نستطيع أن نثق به كل الثقة هو أن الإنسان وهذا الوجود من حوله لم ينشأ نشأة ذاتية من العدم المطلق بل إن لهما بداية ولا بد لكل بداية من مبتدئ كما أننا نعرف أن هذا النظام الرائع المعقد الذي يسود هذا الكون يخضع لقوانين لم يخلقها الإنسان، وإن معجزة الحياة في حد ذاتها لها بداية كما أن وراءها توجيهًا وتدبيرًا خارج دائرة الإنسان إنها بداية مقدسة وتوجيه مقدس وتدبير إلهي محكم**» [(١)]. كل هذه الاكتشافات تثبت أن الكون ليس أزليًا وأنه لم يخلق نفسه بنفسه.

ثانيًا: دلالة علم الفلك على حدوث الكون:

إذا كان علم الفيزياء الحديثة قد أثبت عن طريق القوانين العلمية أن الكون له بداية فإن علم الفلك يؤكد ذلك.

يقرر الفلكي «**روبرت جاسترو** Robert Jasterow(**أن سلسلة الحوادث التي أدت إلى ظهور الإنسان بدأت فجأة وبعنف في لحظة معينة من الزمن وفي ومضة ضوء وطاقة**» [(٢)]، ويقرر علم الفلك أيضًا أن الكون يتسع بالتسلسل الدائم وأن كل مجاميع النجوم والأجرام السماوية تتباعد بسرعة مدهشة بعضها عن بعض ولا يمكن تفسير هذه الحالة إلا بالتسليم بأن الكون له بداية وكانت الأجزاء التركيبية مركزة ومجتمعة بعضها مع بعض ثم بدأت الحركة والحرارة، والتسليم بهذه القوانين العلمية، ثم إنكار أن يكون لهذا الكون إله كمن يدعي أن الأهرامات قامت بنفسها مع تسليمه بأن الأهرامات بناها المصريون منذ أربعة آلاف سنة [(٣)].

إن كل هذه الدلائل تثبت قيام العالم بالله سبحانه وتعالى وأن الكون نشأ من عدم.

---

(١) الأدلة الطبيعية على وجود الله ضمن كتاب الله يتجلى في عصر العلم (ص ٣٨).

(٢) العلم في منظوره الجديد (ص ٦٤) وانظر: دراسة الأسفار المقدسة في ضوء المعارف الحديثة (ص ١٦٣).

(٣) انظر: الإسلام يتحدى بتصرف (ص ٥٠، ٥١)، وانظر: توحيد الخالق (ص ٢٦- ٢٩).

كيف تنشأ الحياة من المادة التي لا حياة فيها؟

إن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام :٩٥].

هذا إعلان من الله أنه أخرج الحي من الميت، يجب التسليم به ؛ لأنه لم يدع أحد إلى الآن ذلك.

وإن ادعاء خروج الحياة من اللاحياة بفعل الطبيعة أو بالتولد الذاتي قول يتناقض مع العقل، ومع العلم في آن واحد . أما تناقضه مع العلم، فلاستحالة كون المادة مصدر الحياة لخلوها من الحياة، وما كان خاليًا من شيء قوة وفعلاً لا يمكنه مطلقًا أن يكون مصدرًا له، والمادة خالية من الحياة بالقوة ؛ لأنها لو قدرت أن تبرز الحياة ذات يوم لقدرت أن تبرزها قبل ذلك؛ لأن طبائع الأشياء لا تتغير وإذا قدرت أن تبرزها قبل ذلك اليوم فإنها قادرة أن تبرزها الآن، ولا يمكن أن توجد في وقت آخر، وذلك مقرر في مبادئ علوم الطبيعة، أما خلو المادة من الحياة بالفعل فشيء ثابت وظاهر لأننا لم نر مادة جامدة أنبتت حياة [١].

أما تناقض القول بأن الحياة تخرج من اللاحياة مع العلم فيرجع إلى أن **«جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بخذلان وفشل ذريعين، ومع ذلك فإن من يُنكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر على أن مجرد تجمع بعض الذرات والجزئيات يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة الموجودة في الخلايا الحية؛ لأن كل خلية من هذه الخلايا قد بلغت درجة من التعقيد يصعب على العلماء فهمها ، وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية على سطح الأرض تشهد بقدرة الله شهادة تقوم على الفكر والمنطق،**

(١) انظر: دلائل التوحيد للقاسمي (ص ١٠١، ١٠٢)، وانظر: موقف العلم والعقل والعالم من رب العالمين للشيخ مصطفى صبري (١/٣٠٨- ٣١٠).

ولشخص أن يقبل أن الحياة نشأت بدون إله ولكنه حين يفعل ذلك فإنما يسلم بأمر أشد إعجازًا وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله الذي خلق الأشياء ودبرها» [(١)]، ونحن قطعًا نسلم بداية بأن الكون مخلوق لله وأن الحياة تخرج من اللاحياة بإرادة الله، ولكن إذا كان الذين يدينون بالعلم وقوانينه هم الذين يردون على الملحدين بنفس منهجهم وطريقتهم، فإن المسلم عليه أن يستثمر تلك النقطة وأن يستأنس بردود هؤلاء العلماء بعد أن بنى يقينه على العلم الصادر من الله عز وجل [(٢)].

أما النقطة الثانية من الشبهة الأولى: وهي ادعاء عدم وجود الله:

فإن الله عز وجل يكذب الذين يزعمون ذلك؛ لأنه قد فطرهم على معرفته ووجوده ووحدانيته يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف :١٧٢-١٧٤]. وهذه الآيات تبين أن الله قد فطر الخلق على معرفته وتوحيده، ولذلك يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم :٣٠]، والمفسرون أكدوا على أن هذه الآيات تبين أن الله فطر الناس على الإقرار بوجوده ووحدانيته، ولهذا كان أكثر الناس على أن الإقرار بالصانع ضروري فطري ؛ لأن اضطرار النفوس إلى الله أعظم من اضطرارهم إلى ما لا تتعلق به حاجتهم، ألا ترى أن الناس يعرفون من أحوال ما تتعلق به منافعهم ومضارهم كولاة أمورهم وأصدقائهم وأعدائهم ما لا يعلمونه

(١) انظر:بتصرف مقال الخلايا الحية تؤدي وظيفتها للدكتور «**رسل تشارلز أرنست**» ضمن كتاب الله يتجلى في عصر العلم (ص ٧٧).

(٢) انظر: الألوهية في الفكر الإسلامي (ص٩٣، ٩٤).

من أحوال من لا يرجونه ولا يخافونه ولذلك فإن احتياج المخلوق للخالق أبين وأوضح ؛ لأنه الذي يأتيهم بالمنافع ويدفع عنهم المضار [١].

أما إنكار وجود الله فإنه لا يكون إلا بعد أن تغير الفطرة بفعل الإنس والجن، وتفسد مدارك السمع والبصر والعقل وهناك آيات كثيرة تثبت عدم الانتفاع بنعم الله من الناحية الإيمانية كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١٠] ، وهناك من الآيات ما يبين ذلك [٢].

ولكن هذا الفساد يزول عن الإنسان ويرجع إلى ربه حين يصيبه البأساء والضراء ففي ذلك الوقت تنقشع الغشاوة من على الفطرة ويعود الإنسان إلى ربه وقد صرح القرآن الكريم بذلك، يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [يونس :٢٢] .

ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء :٦٧][٣].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل :٥٢-٥٣].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٤٢٢، ٤٢٣)، والرازي (١٥/٤٦- ٤٨)، وموافقة صريح المعقول للمنقول (٣/١٣٦).

(٢) انظر: سورة البقرة آية: (٨٨)، والأنفال آية: (٢٣)، والنساء آية: (١٥٥)، ومحمد آية: (١٦)، والفرقان: (٤٤)،وغيرها من الآيات الكثيرة. انظر: الإيمان لابن تيمية (٢٢- ٢٤) تحقيق الألباني ١٤٩٠هـ.

(٣) انظر: يونس: (١٢).

وهذه الآيات تبين أن الإنسان ساعة الضر وساعة الشدة لا يجد ملجأ ولا مفرًا إلا الله وللإنسان أن يتأمل التعبير القرآني في اللجوء إلى الله والاستعانة به والاستغاثة بقوته ورحمته، هذا التعبير: ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل :٥٣] فإن الآية تظهر أن الإنسان يجأر أي يرفع صوته بالدعاء والتضرع والاستغاثة، وهذا يعني أن الدافع الفطري والإحساس بأن الله هو المنقذ عميق وقوي ومسيطر على النفس البشرية ويظهر هذا الشعور حين يمس الإنسان أدنى بلاء [١].

ولذلك فإن «الشهرستاني» يعتبر أن أوضح الأدلة على وجود الله هو دليل الفطرة السليمة شهدت بضرورة فطرتها وبديهية فكرتها على صانع حكيم عالم قدير والناس إن غفلوا عن الفطرة في حال السراء فلا شك أنهم يلوذون به في حال الضراء ويستشهد بالآيات السابق ذكرها.

والرسل إنما هم مبعوثون لتذكية الفطرة وتطهيرها عن تسويل الشيطان، فإنهم الباقون على أصل الفطرة وما كان له عليهم من سلطان ولذلك قال: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى :٩-١٠] ومن رحل إلى الله قربت مسافته حيث رجع إلى نفسه أوفى رجوع فعرف احتياجه إليه في تكوينه وبقائه وتقلبه [٢]، وابن تيمية في درء تعارض العقل مع النقل يولي كلام الشهرستاني اهتمامًا كبيرًا في الاستدلال على وجود الله [٣].

ولا يقولن قائل إننا نناقش قومًا كفروا بالله ورسله وكتبه فكيف نستدل لهم بآيات من القرآن الكريم؟

والحق أن القرآن حين نبه على الدلائل التي توصل إلى معرفته وخاصة دليل الفطرة لم يختص قومًا دون قوم ولم يخاطب نفسًا دون نفس وإنما خاطب الناس كلهم ؛ لأنه عالم بنفوسهم وتفكيرهم.

(١) انظر: المنهاج القرآني (ص ٨٨، ٨٩).
(٢) انظر: نهاية الإقدام للشهرستاني (ص ١٢٤- ١٢٦).
(٣) موافقة صريح المعقول للمنقول لابن تيمية (١٢٩/٣، ١٣٠).

يقول تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك :١٤] ، وإذا لم يقتنع الإنسان أيًّا كان زمانه ومكانه وتفكيره بكلام الله فهل يتصور أن يقتنع بغير كلام الله؟ الحق أن الله عز وجل بعد أن أودع القرآن الكريم الدلائل على وجوده ووحدانيته قال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية :٦] ، أي: إذا لم يقتنع الملحد والكافر أمريكيًّا أو أوربيًّا أو روسيًّا بآيات الله ودلائله فلن يؤمن بشيء آخر. ثم إن القرآن كان يخاطب أهل مكة وهو يعلم أنهم على الكفر [١].

ولكن لأن أدلة القرآن الكريم تنفذ إلى النفس البشرية وتغيرها، كان خطاب الله لهؤلاء، وما على الذي يعرض كتاب الله إلا أن يتحلى باللغة المناسبة والفطرة التى نأخذ منها دليلاً على وجود الله من هذه الأدلة التي يتساوى جميع الناس فيها على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وتفكيرهم وفقرهم وغناهم، يلمح لهذا الدكتور «**فاروق الدسوقي**» في كتابه «**القضاء والقدر**» فيذكر أن ملحدي العصر يعمدون إلى إنكار الغيبيات لفقدهم الدليل المادي على وجودها فهم لا يؤمنون إلا بالمادة المحسوسة والمناهج التجريبية كوسائل للبحث، والقرآن الكريم يقدم لهؤلاء وسيلة تناسب ما يؤمنون به من الناحية الحسية، لا ليثبت لهم وجود الله ولكن ليأخذ منهم اعترافًا صريحًا أن الله موجود في أعماق نفوسهم، وإذا ثبت أن الإيمان موجود في أعماقهم فقد أثبت ما ينتهي إليه هذا الإيمان، والمنهج الذي يقدمه القرآن لكشف حقيقة المنكرين له هو «**المنهج النفسي التجريبي حيث يجري عليهم تجربة نفسية تتلخص في أن نأخذ بعض الملاحدة في قارب صغير في بحر لجي حيث يوشك القارب أن يغرق بهم بشرط أن تكون التجربة دون علم هؤلاء الملاحدة، ثم علينا بعد ذلك أن نسجل مشاهداتنا وملاحظاتنا عن سلوكهم حيال هذا الخطر على حياتهم، وسنرى هل**

(١) انظر: العقيدة في الله (ص ٥٧، ٥٨) الدكتور عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح الكويت سنة ١٩٨٤م.

سيتوجهون إلى الأرض أم السماء؟ وهل سيدعون البحر أم رب البحر وخالقه؟ وعلينا أن نسألهم بعد ذلك من أين لهم هذا الإيمان دون مناظرة أو مجادلة؟ إن القرآن الكريم يخبرنا أنهم في تلك اللحظة لا يؤمنون فقط بوجود الله ولكن بأنه الواحد الأحد القادر، ونحن نتحدى ملاحدة هذا العصر أن يقيموا هذه التجربة بشرط أن يتحلوا بالأمانة والحياد والرغبة في الوصول إلى الحق والحقيقة» [(١)].

وصدق الله العظيم حين قال: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء :٦٧] .

وأخيرًا نأتي إلى النقطة الثالثة من الشبهة الأولى وهي:

صفات الله ثم المادة:

الحق الذي ظهر للباحث أن الماديين حين كفروا بالله آمنوا بالمادة وفعلوا مع المادة مثلما يفعل المؤمنون مع الله.

فإذا كان المؤمن يؤمن بقوة غيبية لا ترى، هذه القوة هي الله، فإن الماديين يؤمنون أيضًا بقوة غيبية لا ترى وهم مضطرون إلى ذلك فما القانون العلمي والقوة والحركة والزمن والأزلي والأبدي إلا مفاهيم لا تخضع للحس والمشاهدة ومع ذلك لا يجرؤ أحد من الماديين أن ينكرها وإلا لكان علمه ساذجًا ولاتَّهمه زملاؤه بالسطحية.

يقول الأستاذ وحيد الدين خان: **«إن أي عالم من علماء عصرنا لا يستطيع أن يخطو دون الاعتماد على ألفاظ مثل القوة: Forceالطاقة: Energy الطبيعة: Nature وقانون الطبيعة: low of nature . وما إلى ذلك ، ولكن هذا العالم لا يدري ما القوة والطاقة والطبيعة وقانونها، فهو قد صاغ كلمات تعبر عن وقائع معلومة لكي يبين عللًا غير معلومة وهذا العالم لا يقدر على تفسير هذه الألفاظ تمامًا كرجل الدين لا يستطيع تفسير صفات الإله وكلاهما يؤمن بدوره بعلل غير معلومة»** [(٢)]. وإذا

(١) انظر: بتصرف القضاء والقدر في الإسلام (١/٩٩- ١٠١) دار الدعوة الإسكندرية.
(٢) الإسلام يتحدى (ص ٤٢)، وانظر: الله يتجلى في عصر العلم (ص ١٨).

تتبعنا الماديين في كثير جدًا من المواقف نجد أنهم لا يختلفون عن المؤمنين في مواقفهم فإن عندهم إيمانًا بل وعندهم إلهام داخلي.

يقول الدكتور كونانت: **«أعظم الفروض التمهيدية الكبرى التي جاء بها تاريخ العلم نشأت نتيجة لعملية ذهنية يعبر عنها أحيانًا بأنها (مسة من عبقرية) أو (خاطرة ملهمة) أو (ومضة من خيال باهر) وقلما يتبين فيها الناظر أنها كانت نتيجة لتمحيص النتائج كلها أو تحليل منطقي لها أو محاولة منظمة لصياغتها أدَّت إلى ما انتهى إليه صاحبها»** (١).

ونستطيع أن نقول بدون تجاوز للحقيقة: إن المؤمن كما يعبد الله، ويتوجه إليه فإن المادي يعبد المادة ويتوجه إليها، لا فرق بين القدامى والمحدثين، فإن **«الشهرستاني»** وصف المادة بأنها معبود الدهريين (٢). وكما يعتقد المؤمن في الرسل فإن المادي يعتقد في الفلاسفة الماديين الذين صاغوا مذهبه، وكما أن المؤمن له كتاب مقدس فإن المادي له أيضًا كتب مقدسة تتمثل في المؤلفات المادية ، وكما أن المسلم يصلي ويعبد الله فإن الماديين يفعلون (٣) ذلك كما في معابد أم البشرية (٤) ، وكما أن المسلم يذهب إلى بيت الله الحرام، فإن الماديين يطوفون حول قبور زعمائهم كما يحدث في الاتحاد السوفيتي (٥).

العبادة لله لا للمادة:

يتفق المؤمنون والماديون كل فيما يعتقد: أن ظواهر العلم متغيرة وأن كل

(١) مواقف حاسمة (ص ٨٢) نقلاً عن الدكتور يحيى هاشم، في مواجهة الإلحاد المعاصر (ص ٧٠- ٧١).

(٢) انظر: نهاية الإقدام للشهرستاني (ص ١٢٦).

(٣) انظر: للأهمية العلم والدين في الفلسفة المعاصرة (ص ٥٠- ٥٣).

(٤) انظر مجلة أكتوبر بتاريخ ١٩٧٧/١١/١٣ نقلاً عن: في مواجهة الإلحاد المعاصر (ص ٢٢٣).

(٥) في مواجهة الإلحاد المعاصر (ص ٢٢٦).

متغير له أصل صدر عنه، وظواهر العالم لها أصل تتغير عنه وهذا متفق عليه ، ولكن الكلام في هذا الأصل، هل وجوده لذاته أو لغيره؟ المؤمنون يقولون إن أصل الكون وهو الله وجوده لذاته، والماديون يقولون المادة التي صدر عنها الكون وجودها لذاتها. والمؤمنون يجمعون على أن الله ذو سلطان لا راد لأمره تخضع له حركة الأشياء والماديون يقولون ذلك أيضًا بالنسبة للمادة.

والسؤال الذي يطرح للمؤمن والمادي هو:

هل هذا الأصل من جنس العالم الذي نعرفه أو ليس من جنسه؟

الماديون يقولون: إنه من جنس هذا العالم؛ لأنهم لا يعترفون بغير المادة، والمؤمنون يقولون: إنه ليس من جنس هذا العالم ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى :١١] .

والماديون يقعون في التناقض حين يقولون إن أصل العالم من جنس العالم للآتي:

١- لأن القول بأنه من جنس هذا العالم المادي يقتضي كونه جزءًا منه، والقول بأنه أصل العالم يقتضي كونه غيره وهذا تناقض.

٢- ولأن القول بأنه من جنس هذا العالم يقتضي كونه ذا بداية لأن ما هو من جنس العالم له بداية كما أثبتت النظريات العلمية وهم يقولون بأزليته.

٣- ولأن القول بأنه من جنس هذا العالم المادي يقتضي كونه فانيًا لأن ما هو من هذا العالم يفنى وهم قد قالوا بخلوده.

ولا يقال إننا نريد بالأصل المادة من حيث هي مادة، وهي عندنا (أي الماديين) واجبة لا نهائية أبدية أزلية فلم نقع في التناقض.

ونحن نقول للماديين إن ما تقولونه عن المادة المتصفة بما تقدم يخرجها عن كونها من جنس هذا العالم المادي الذي نعرفه؛ لأن ما نعرفه من هذا

العالم المادي إنما هو أفراد فنعرفه ممكن الوجود منتهيًا له بداية وله نهاية.

فما السبيل إلى معرفتكم المادة المطلقة التي وصفتموها بالأزلية والأبدية وهي من جنس العالم المادي الذي نعرفه.

ولذلك فأنتم تقولون بشيء ليس من جنس العالم وإن سميتموه مادة فهو خارج عنها غير متصف بصفاتها [١].

وبعد تلك المقارنة نخلص إلى أن المؤمنين يعبدون إلهًا حقًّا متصفًا بصفات الجلال والكمال.

أما الماديون فيشركون مع الله غيره حين يتخذون المادة إلهًا وهم في ذلك إنما يعبدون هواهم، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية :٢٣-٢٤] .

إن الله عز وجل يرسم صورة للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت الذي يحركها وتشعر به وهو الله ، ثم تتعبد للهوى وتخضع له وتقيمه إلهًا قاهرًا لها مستوليًا عليها ، إن القرآن الكريم يعجب من هذا الذي اتخذ إلهه هواه بعد معرفته للحق الذي كان ينبغي أن يصده عما اتخذه من دون الله ولكن؛ لأنه لم يرعوى لهدى الله فإنه استحق الإضلال من الله وتركه في عمايته ، ولذلك ختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة [٢].

فمهما قدمت له الأدلة والبراهين فلن يهتدي لأنه رفض هداية الله بداية فاستحق الجزاء على ذلك الرفض ، وكأن تلك الآية يقرؤها الإنسان للمرة الأولى وهو يرى التطابق بين الفكر المادي وأصحابه والتوصيف الدقيق لهم من الله في هذه الآية الفذة الفريدة ولا يملك الإنسان إلا أن يقول سبحان من أنزل القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين وخسارا وبعدا للظالمين الذين حجبوا أنفسهم عن التعرض لهداية الله وتوفيقه.

---

(١) انظر: في مواجهة الإلحاد المعاصر (ص ٢٣٨- ٢٤٠) بتصرف.

(٢) انظر: ظلال القرآن (٥/٣٢٣٠- ٣٢٣١).

القائلون بالصدفة في خلق العالم والرد عليهم

الشبهة الثانية: القول بالصدفة

لقد وجد قديمًا في فلاسفة اليونان من ذهب إلى أن الحياة نشأت اتفاقا دون أي غائية أو علة خارجية وبنى العالم على الاتفاق والمصادفة [١].

وهذا بعينه ما وجد عند الدهريين الذين ذهبوا إلى أن العالم كان في الأزل أجزاء مبثوثة تتحرك على استقامة فاصطكت اتفاقا فحصل عنها العالم الذي نراه [٢].

وإذا كان القدامى من الماديين والدهريين قد ذهبوا إلى هذا القول فإن كثيرا من الماديين المحدثين ذهبوا إلى القول بالصدفة لئلا يفسروا الكون بخالق، من هؤلاء «أرنست هكل» الذي ذهب إلى أن المادة هي الموجد الضروري للحياة وأن الحياة ترجع إلى أصل واحد هو **«المونيرا»** التي تركبت اتفاقا من **«الأزوت والهيدروجين والأكسجين»** ومنها تكونت الحياة [٣].

ووصل الثقة بالصدفة وما ينتج عنها أن زعم **«هكسلي»** بأنه **«لو جلست ستة من القرود على آلات كاتبة وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبوها قصيدة من قصائد (شكسبير) فكذلك كل الكون الآن نتيجة لعمليات عمياء تدور في المادة لبلايين السنين** [٤].

بل وصل الأمر إلى ابعد من ذلك حين زعم **«هكل»** [٥] عالم البيولوجيا أنه

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية (ص ٤٠).

(٢) مفيد العموم ومبيد الهموم للخوارزمي (ص ١٠٦).

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة (ص ٤٠٠).

(٤) الإسلام يتحدى (ص ٦٥)، وانظر: الله من الفطرة والدليل (ص ٦٠) الشيخ محمد حسن آل ياسين (ص ٦٠).

(٥) أستاذ علم الحيوان بجامعة فيينا ١٨٣٤- ١٩١٩.

قادر على خلق الإنسان يقول : «**ائتوني بالهواء وبالماء وبالأجزاء الكيماوية وبالوقت وسأخلق الإنسان**» (١).

ويلخص الفيلسوف «**برتراند رسل**» تاريخ البشرية كلها في القول بالصدفة فيقول : «**ليس وراء نشأة الإنسان غاية أو تدبير إن نشأته وحياته وآماله ومخاوفه وعواطفه وعقائده ليست إلا نتيجة اجتماع ذرات جسمه عن طريق المصادفة**» (٢).

كانت هذه هي شبه القائلين بالصدفة وهذه الشبهه لا تخرج في مضمونها عن الشبه الأولى اللهم إلا في الشكل فقط ولكن المضمون واحد .

وسنحاول أن نفند تلك الشبهات مرتكزين على القرآن الكريم مستخرجين منه الأدلة الباهرة التي تبطل القول بالصدفة عن طريق ما أودعه الله في الكون والإنسان والحيوان والنبات من قصد وتدبير مستأنسين بمفهوم العلماء حول إبداع الله في هذه الأشياء مستعينين في الوقت نفسه بما قرره العلماء المحدثين من نتائج العلم الحديث حول ما نستشهد به من نماذج.

إن القرآن الكريم فيه من الدلائل التي تضيف إلى الخلق والإبداع العناية والقصد في الكون بأسره من شمس وقمر وجبال وأنهار وإنسان وحيوان ونبات ، لأن كل مخلوق خلقه الله إنما خلقه لغاية وخلقه بقدر ، وإن غاب عن المخلوقين فلا يغيب عن الخالق جل في علاه مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر :٤٩] .

وسنحاول عرض نماذج من الآيات التي تتحدث عن الكون وما فيه من ليل ونهار وشمس وقمر وكذلك للآيات التي تتحدث عن خلق الإنسان والعناية به، ثم خلق الحيوان ثم خلق النبات .

---

(١) الإسلام يتحدى (ص ٧٠).

(٢) ويليام توبلوتشي: مقال بعنوان المادية وحدها لا تكفي ضمن كتاب الله يتجلى في عصر العلم.

أولا: الآيات الكونية ويعرف هذا الاستدلال بدليل الآفاق :

١- يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران :١٩٠] .

٢- ويقول سبحانه: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام :٩٦] .

٣- ويقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝﴾ [يونس: ٥].

٤- ويقول: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الرعد :٢] .

٥- ويقول سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم :٣٣] .

٦- ويقول تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ۝٣٧ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٣٨ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس :٣٧-٤٠] .

هذه الآيات على سبيل المثال لا الحصر هي التي يستدل بها العلماء فيما يسمى:

بالدليل الغائي:

وقد قال بهذا علماء الإسلام وعلى رأسهم «ابن رشد» [١] وقال به الغربيون واعتبره «كانط» أوضح الأدلة كلها على وجود الله [٢] ، ولكن مع كل ما قاله العلماء تبقى آيات القرآن الكريم شاهدة على أن هذا الكون خلقه الله وأبدعه

(١) منهاج الأدلة (ص ١٥٠).

(٢) المدخل في الفلسفة (ص ٢٤٤).

وسخره ، وأي انحراف وخروج عن المسار الذي رسمه الله لمخلوقاته سيحيل العالم إلى فوضى واضطراب ولن تعمر الأرض، بل لن تبقى.

والآيات التي عرضناها خير دليل على ذلك فإن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لدلائل عظيمة شاهدة على الإبداع والعناية ولذلك كانت من المعجزات التي أيد الله رسوله بها .

فقد روى الطبراني وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: أتت قريش اليهود فقالوا : بم جاءكم موسى من الآيات؟ قالوا عصاه ، ويد بيضاء للناظرين ، وأتوا النصارى فقالوا : كيف كان عيسى ؟ قالوا : كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى ، فأتوا النبي فقالوا : ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبا . فدعا ربه ، فنزلت الآية ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران :١٩٠] «فليتفكروا فيها» (١).

إن الشمس والقمر وسيرهما الدقيق لمن الدلائل على وجود الصانع وعلمه وقدرته وحكمته ، ففلق ظلمة الليل بنور الصبح لمن أعظم النعم لأن الأحوال الفلكية أعظم في القلوب وأكثر وقعا في النفوس من الأحوال الأرضية.

وإن الناظر للسماء وما فيها من كواكب تزينها ويهتدي بها في ظلمات الليل ليمكن أن يتدبر بهذه النجوم والأفلاك ويستدل بها على اللطيف الخبير (٢).

إلا إن الشيء الذين يلفت النظر ويثير الانتباه هو حركة الشمس والقمر وسير كل منهما في فلك يسبحون فهذا من أعظم الدلائل وأبينها على القصد والغاية ، فضلا عن أن العلماء المحدثين قد اكتشفوا أفضل تعبير عن حركة الشمس والقمر هو لفظ السباحة.

---

(١) لباب المنقول في أسباب النزول بهامش الجلالين (ص ١٠١).

(٢) انظر: الرازي (١٣/٩٤- ٩٨، ١٠٠- ١٠١)، والكشاف (٢/٣٨- ٣٩).

يقول الأستاذ وحيد الدين خان «**كان الإنسان في العصر الغابر يشاهد النجوم تتحرك وتبتعد عن أماكنها بعد وقت معين ولذلك لم يكن هذا التعبير القرآني موضع دهشتهم واستغرابهم ولكن البحوث الحديثة قد خلعت على هذه التعبيرات ثوبا جديدا فليس هناك تعبيرا أروع ولا أدق من (السباحة) لدوران الأجرام السماوية في الفضاء البسيط اللطيف**»[١].

فالشمس والقمر لا يتسهل لأحد منهما ولا يستقيم ولا ينبغي لأحدهما أن يترك فلكه الذي حدد له لجريانه ودورانه ، والمسافات التي جعلها الله بين مدارات الكواكب بعيدة شاسعة حتى لا تصطدم ، وكل مقدر له أن يسير في فلكه سابحا فيه كما عبر القرآن الكريم [٢].

ويأتي الإعجاز في وضع الشمس والقمر بالنسبة للأرض.

إن الله عز وجل أتقن حركة الشمس والقمر وقدر بعدهما عن الأرض فالشمس التي نعدها اليوم وسيلة حياتنا تبلغ درجة حرارة سطحها اثنتي عشرة ألف درجة «فهرنهيت» والمسافة بينها وبين الأرض تبلغ ما يقرب من ٩٣٠٠٠/٠٠٠ ميلا ، وهذا البعد الهائل لا يتغير أبدا بالزيادة أو النقصان وفى ذلك عبرة وتقدير من العزيز العليم لأن هذه المسافة لو نقصت واقتربت الشمس من الأرض فإن الحياة تصبح مستحيلة على الأرض ، ولو أن هذه المسافة بعدت أيضًا فإن البرودة الشديدة التي تنجم عن هذا البعد سوف تقضى على الحياة على وجه الأرض ولو حل محل الشمس نجم آخر، فإن الأرض ستصبح تنورا رهيبا لا حياة فيه لإنسان أو حيوان أو نبات أو جماد[٣].

هذا عن الشمس . فماذا عن القمر ؟

إن القمر قد جعل الله له مسافة معينة يبعد بها عن الأرض ومن هذه

(١) الإسلام يتحدى (ص ١٢٥)، وانظر: الأسفار المقدسة في ضوء المعارف الحديثة (ص ١٨٣- ١٨٤).

(٢) انظر ظلال القرآن (٥/ ٢٩٦٧- ٢٩٦٩)، وانظر: النسبية والكون (ص ١٢/١١) للدكتور عبد المحسن صالح وانظر: التوحيد (٣/٣٢- ٣٤).

(٣) الإسلام يتحدى (ص ٥٨) بتصرف.

المسافة ينتفع بالقمر ويسير الناس في ضوئه ويتغنى الشعراء بطيفه .

فماذا لو بعد عن المسافة التي عليها الآن ؟ إن المد في المحيطات والبحار الذي يرتبط بالقمر ، كان سيبلغ من القوة بحيث إن جميع الأراضي التي تحت منسوب الماء كانت ستُغمر مرتين في اليوم بماء متدفق يزيح بقوته الجبال نفسها وفى هذه الحالة ربما كانت لن توجد الآن القارات ، وكانت الكرة الأرضية من الممكن أن تتحطم من جراء هذه الاضطرابات وكان المد الذي في الهواء سيحدث أعاصير كل يوم [١].

من الذي قدر هذه الأمور كلها، الصدفة العمياء أم قدرة الله الواحد القهار ؟

سنضرب مثالا بسيطا من الواقع العالمي : إن الدول الكبرى الآن تتبارى وتتباهى في إطلاق الأقمار الصناعية فهل إذا زعم أحد أن ألف قمر صناعي أو مائة أو عشرة أو قمرًا واحدًا خرج من الأرض وأخذ يسير في مدار مرسوم متزن حول أرضنا نتيجة لتفاعلات كيميائية بين الأسلاك والحديد وبقية المواد المختلفة هل سيجد هذا الإنسان من يصدقه؟ إن الدنيا بأسرها ستسخر من هذا الإنسان لأنه قد أنكر علم العلماء وتقنيات محطات الفضاء ومهارة الفنيين والمدربين ، قمر صغير لا يصدق أحد بأنه نشأ من تلقاء نفسه ويأتي من يزعم من الماديين أن هذا العالم وجد بالصدفة بما يحويه من ملايين من الأفلاك والنجوم والمجرات السابحة في مداراتها المنتظمة [٢] التي يذهب علماء الفلك إلى أن مصادفة مرور نجمين متقاربين لدرجة تكفي لإحداث مد خفاق هدام هي في نطاق الملايين، وأن مصادفة التصادم هي نادرة لدرجة وراء الحسبان [٣].

---

(١) انظر العلم يدعو للإيمان (ص ٥١، ٥٢)، والألوهية في الفكر الإسلامي (١٠١/٢، ١٠٢) وعقيدة المسلم للشيخ الغزالي (ص ٢٢- ٢٣).

(٢) انظر التوحيد (٣٨/٣، ٣٩).

(٣) العلم يدعو للإيمان (ص ٥٢).

إن هذا النظام العجيب والمحكوم القائم على التدبير والتنظيم هو الذي جعل أحد كبار الملحدين وهو « برتراند رسل» يقول : **«إننا نجد حتى في مملكة الكواكب عمليات تنطوي على خصائص غائية لا تختلف اختلافا جوهريا عن ملامح السلوك الغرضي في الحيوانات العليا»** (١).

أين ذهبت المصادفة التي زعمها «رسل» وادعى أن تاريخ البشرية كلها قائم عليها؟ إن الإبداع والنظام والتقدير في الكون يجعل كبار الملحدين يعترفون بالقوة العليا المهيمنة والمدبرة والمسيطرة ، ولكن يمنعهم من الإيمان بها والدعوة إليها الاستكبار والهوى.

ثانيًا: الإنسان:

إن الله عز وجل خلق الإنسان في أحسن تقويم وسخر له الكائنات كلها ولفت نظر الإنسان إلى نفسه وطلب منه أن يتأملها ويتدبر ما فيها من لطيف الصنع وعظيم الغاية ، وجاء ذلك في قول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت :٥٣]، وفي قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات :٢١] .

ويمتن الله تعالى على الإنسان فيقول: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم :٦٧] .

ويلفت النظر إلى تكوين الإنسان منذ أن كان نطفة فعلقة فيقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون :١٢-١٤].

---

(١) فلسفة برتراند رسل (ص ٣٥) للدكتور محمد مهران، دار المعارف ١٩٧٦م.

ويذكّر الإنسان بالنعم الظاهرة فيقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك :٢٣] .

ويقول عز وجل: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد :٨-١٠] .

وهذه الآيات في مجموعها تتحدث عن الإنسان وما أودع الله فيه من ملكات وأعضاء ويسمي العلماء هذا الدليل:

الدليل النفسي:

والحق أن الذي يقرأ ما كتبه المفسرون [١]، وعلماء الإسلام حول ذلك الدليل النفسي يرى أن العلماء لم يهتموا بالجانب الظاهري فقط من هذه النعم، وإنما التفتوا إلى الجانب الباطني في الإنسان من إلهام وإدراك وشعور وفرح وحزن وغير ذلك من الأشياء التي لا تُرى ولا تُشاهد، وإن الآيات لتشير إلى ذلك في وضوح وجلاء، ومن العلماء الذين اهتموا بالجانب النفسي في الإنسان من هداية ومعرفة لله ورجوع إليه الإمام الغزالي في «**إحياء علوم الدين**» الذي يذكر أن من أهم نعم الله على الإنسان الأشياء الحاصلة للنفس وهي من أخص النعم كالفضائل النفسية التي يرجع حاصلها مع تشعب أطرافها إلى الإيمان وحسن الخلق، والإيمان يشمل علم المكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله، ويشمل أيضًا علم المعاملة مع الخلق وحسن الخلق الذي يشمل: ترك مقتضى الشهوات والغضب ويسمى هذا النوع بالعفة ويشمل مراعاة العدل في الكف عن مقتضى الشهوات حتى لا يمتنع أصلاً.. ويخلص إلى أن «**الفضائل الخاصة بالنفس المقربة إلى الله تعالى أربعة: علم مكاشفة، وعلم معاملة، وعفة وعدالة**» [٢].

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي (١٣٩/٢٧/- ١٤٠)، وابن كثير (١٠٥/٤- ٢٣٥)، والقرطبي (٣٧٤/١٥، ٣٧٥).

(٢) انظر إحياء علوم الدين (٢٢٤٠/١٢- ٢٢٤١).

ولم يكتف الغزالي بلفت النظر إلى النعم النفسية التي في داخل الإنسان ولكنه أوضح النعم الظاهرة التي أنعم الله بها على الإنسان وأعظم تلك النعم نشأته وتكوينه التي يقف الخلق عاجزين أمام صنع الله في الإنسان وتكوينه من نطفة ثم علقة ثم مضغة، إن الإنسان إذا فكر في عملية تكوينه في بطن أمه وجد آيات وآيات، ذلك الجزء الذي يصنع العين لماذا يصنع العين؟ والجنين لا حاجة له بالعين وهو في بطن أمه من الذي نظم للإنسان هذا الجهاز البصري ليرى به ما حوله بعد خروجه إلى الحياة؟ من الذي كوَّن للعين أغشية بصرية رقيقة وعدسة محكمة وماءً زجاجيًّا مقدرًا وشبكية تتكون إحدى طبقاتها من ثلاثين مليون عود بصري وثلاثة ملايين مخروط بصري؟ ومن الذي أخبر ذلك الجزء من النطفة أن ينشئ العصب البصري ويشق له فتحة بقدر محدد في الجمجمة، ويصنع مركزًا بصريًّا في المخ ويربط به ذلك العصب البصري وما يقال في العين يقال في الرئتين، إن الجنين لا حاجة له إلى الرئتين بل لو دخل قليل من الهواء إلى القرار المكين لأحدث فيه أضرارًا بالغة، فلماذا يصنع إذن هذا الجهاز التنفسي لاستقبال الهواء؟ إن الذي صنع وإن الذي قدَّر هو العالم بما يحتاج إليه الجنين بعد خروجه إلى الحياة ولا نملك إلا أن نقرأ قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢][(١)].

وما يُذكر عن الجنين في بطن أمه يُذكر عن الإنسان بعد أن يخرج إلى الحياة وما فيه من نعم ظاهرة من يدين ورجلين وسمع وبصر وإدراك وإحساس.

ولقد عرض «**الإمام الغزالي**» هذه النعم الظاهرة في بيان رائع وأسلوب بديع مبينًا الترابط الذي يأخذ بالألباب بين أعضاء الإنسان بعضها والبعض الآخر[(٢)].

---

(١) انظر توحيد الخالق (٢/٤٥- ٤٧)، وانظر إيثار الحق على الخلق لابن الوزير (١٦٢، ١٦٣) وانظر الاعتقاد إلي سبيل الهداية والرشاد (ص ٤١، ٤٢).

(٢) انظر إحياء علوم الدين (١٢/٢٢٥٤- ٢٢٦٠).

الإنسان وأعضاؤه في العلم التجريبي:

إذا كان المفسرون وعلماء الإسلام «**كالغزالي وابن الوزير**» وغيرهم قد لفتوا الأنظار إلى النعم الداخلية والخارجية للإنسان وبينوا بديع صنع الله فيه، فإن العلماء التجريبيين قد انكبوا على دراسة الإنسان من الناحية العضوية وخرجوا بنتائج لا يملك الإنسان إلا أن يقول سبحان الله الذي خلق فسوى والذي قدَّر فهدى، وفي الوقت ذاته لا يملك إلا أن يسخر من الماديين الذين يقولون بالصدفة، فماذا قال التجريبيون؟

أ- مخ الإنسان:

إن ملايين الأخبار تجري ليل نهار على جهازنا العصبي، وهذه الأخبار هي التي توجه القلب في تدفقه وفي حركاته وتتحكم في حركات الأعضاء المختلفة وتتحكم في الحركات الرئوية، ولو لم يكن هذا النظام موجودًا في أجسامنا لصارت الأجسام تلفيقًا مبعثرًا تسلك كل منها مسلكًا خاصًا. ومركز هذا النظام مخ الإنسان وفيه يوجد ألف مليون خلية عصبية ومن هذه الخلايا تخرج الأنسجة العصبية، ويجري في هذه الأنسجة نظام إرسال واستقبال للأخبار بسرعة سبعين ميلاً في الساعة، ومن خلال هذه الأنسجة نتذوق ونسمع ونرى ونباشر سائر أعمالنا.

ب- في حاسة الذوق:

توجد ثلاثة آلاف من الشعيرات المتذوقة ولكل منها مسلك عصبي متصل بالمخ وبواسطة هذه الشعيرات يحس الإنسان بالمذاقات المختلفة ولولا هذه الشعيرات ما شعر الإنسان بطعم حلاوة أو مرارة.

ج- وفي حاسة الإبصار:

يوجد في كل عين مائة وثلاثون مليونًا من الخلايا الملتقطة للضوء تقوم بمهمة إرسال المجموعة التصويرية إلى المخ.

د- وفي حاسة السمع [١]:

يوجد في الأذن عشرة آلاف خلية سمعية ومن خلال نظام معقد يسري من هذه الخلايا يسمع مخنا.

هـ- وفي حاسة الإدراك والإحساس:

توجد أنسجة حسية على امتداد جلد الإنسان فإذا قربنا شيئًا حارًّا فإن ثلاثين ألفًا من الخلايا الملتقطة للحرارة تحس بهذه العملية وترسلها إلى المخ، وإذا قربنا شيئًا باردًا إلى الجلد فإن ربع مليون من الخلايا ترسل هذا الإحساس إلى المخ فيرتعد الجسم، ثم تتسع الشرايين الجلدية فيسرع مزيد من الدم إليها وتزودها بالحرارة.

و- النظام العصبي:

في الإنسان يشتمل على عدة فروع منها الفرع المتحرك ذاتيًا ويقوم بأعمال الهضم والتنفس وحركات القلب وتحت هذا الفرع يوجد نظامان:

أحدهما: النظام الخالق للحركة. Sympathetic system.

الثاني: المانع للحركة. Payasy Sympathetic والنظام الثاني يقوم بعملية المقاومة والدفاع.

والنظام الأول: لو ترك الأمر له لزادت حركات القلب زيادة يترتب عليها موت صاحبها.

ولو ترك الأمر للنظام الثاني: لتوقفت حركة القلب توقفًا تامًّا ولكن توزعت أعمال النظامين بدقة وعناية.

فالنظام الثاني: يسود عند النوم فيسود السكون جميع الحركات الجسمية [٢].

---

(١) انظر: العلم يدعو إلى الإيمان (ص ١١٩).

(٢) انظر: بصفة أساسية الإسلام يتحدى (ص ٥٤، ٥٥) بتصرف كبير، وانظر: العلم يدعو إلى الإيمان (ص ١١٩) وانظر: القرآن الكريم يتحدى (ص ٣٨١، ٣٨٢).

وبعد هذه الدلائل الكبرى التي أودعها الله في الإنسان يأتي «هكلي» ويقول: ائتوني بالماء والهواء وسأخلق الإنسان.. هنا يقول: إني سأخلق فكأن الصنعة لا بد لها من صانع.

يقول الأستاذ كريس موريس: «**إن (هكل) يتجاهل في دعواه الجينات الوراثية فإن أول شيء سيحتاج إليه عند خلق الإنسان هو الذرات التي لا سبيل إلى مشاهدتها ثم يخلق الجينات أو حملة الاستعدادات الوراثية بعد ترتيب هذه الذرات حتى يعطيها ثوب الحياة وإن إمكان الخلق بعد هذه المحاولة لا تعدو أن تكون واحدًا على عدة بلايين ولو افترضنا أن (هكل) نجح في محاولته فإنه لن يسميها «صدفة»** بل سوف يقررها ويعدها نتيجة لعبقريته» (١).

ومع هذا الادعاء فلم ينجح أحد إلى الآن في خلق نطفة أو خلية حيَّة فضلاً عن الإنسان، وما زال التحدي قائمًا ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان :١١] .

ثالثًا: في الدواب:

إن نعم الله لا تحصى على الإنسان في الأنعام فقد سخرها الله له تحمله من بلد إلى بلد ويلبس من أصوافها وأوبارها، ثم يأكل منها لحمًا ويشرب منها لبنًا، ولقد وردت آيات في القرآن الكريم تتحدث عن القصد والعناية والغاية من خلق الدواب والأنعام، لا يمكن أن تكون إلا من فعل قادر حكيم عليم.

يقول تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام :٣٨] .

ويقول تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل :٦٦] .

ويقول سبحانه عن النحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ

(١) الإسلام يتحدى (ص ٧٠، ٧١).

مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل :٦٨-٦٩].

هذه الآيات يبين الله فيها أنه ما من دابة ولا طائر إلا عالم مثل عالم الإنسان في كونها جماعات وفي كونها مخلوقات يشبه بعضها بعضًا ويأنس بعضها ببعض ويتزوج كل جنس مع جنسه، وأن الله دبر أمرها وخلقها وهداها وتكفل برزقها [١].

ولقد قام العلماء المحدثون بدراسة سلوك الحيوانات في العقود الأخيرة وانتهوا إلى وجود جماعات حيوانية حقيقية ولم يتم اكتشاف تفاصيل هذه التنظيمات إلا منذ عهد قريب [٢]، وسوف ندرس بعض الإشارات التي وردت في القرآن الكريم عن الحيوانات والطيور ومنافعها وما ألهمه الله في هذه الحيوانات والطيور من إبداع ودقة ونظام.

أ- الأنعام:

إن العبرة التي يلفت الله تعالى نظر الإنسان إليها هي خروج اللبن ذو القيمة الغذائية العالية من بين فرث ودم، وإذا كان القدامى من العلماء قد نظروا إلى الآية على أنها من الناحية الظاهرية معجزة ومن أكبر النعم على الإنسان [٣]، فإن العلم الحديث كشف دلالات ما كانت لتخطر على بال أحد أودعها الله في تلك الآية.

ولقد لفت إلى هذه الدلائل اللجنة التي وضعت تفسير المنتخب الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية [٤]، وأبرز هذه الدلائل أورده «موريس

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي (١٢/ ١١٣، ١١٤)، والألوهية في الفكر الإسلامي (ص١٠٨، ١٠٩).

(٢) دراسة الأسفار في ضوء المعارف الحديثة (٢١٨).

(٣) انظر: الرازي (٢٠/٦٤- ٦٨)، والقرطبي (١٠/١٢٥، ١٢٦)، والكشاف (٢/٤١٩).

(٤) انظر: المنتخب في التفسير (ص ٣٩٥) الهامش، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٢م.

بوكاي» في كتابه «**الأسفار المقدسة في ضوء المعارف الحديثة**» يقول في تعليقه على هذه الآية «**تأتي المواد الأساسية**» التي تتكفل بتغذية الجسم عامة من تفاعلات كيميائية تحدث في القناة الهضمية، وتأتي هذه المواد من عناصر موجودة في محتوى الأمعاء، وعندما تصل هذه المواد الموجودة بالأمعاء إلى المرحلة المطلوبة في التفاعل الكيميائي فإنها تمر عبر جدار الأمعاء نحو الدورة العامة ويتم هذا الانتقال بطريقتين: إما مباشرة بواسطة ما يسمى بالأوعية الليمفاوية، وإما بشكل غير مباشر بواسطة الدورة البابية التي تقود هذه المواد إلى الكبد حيث تقع عليها بعض التعديلات ثم تخرج من الكبد لتذهب أخيرًا إلى الدورة الدموية بهذا الشكل إذ يمر كل شيء بالدورة الدموية، والغدد الثديية هي التي تفرز مكونات اللبن وتتغذى هذه الغدد إذا جاز القول بمنتجات هضم الأغذية التي تأتي بواسطة الدم الدائر.

الدم إذن يلعب دور المحصل والناقل للمواد المستخرجة من الأغذية ومغذي الغدد الثديية منتجة اللبن مثلما يغذي أي عضو آخر، كل شيء يحدث هنا ابتداءً من مواجهة محتوى الأمعاء مع الدم في الجدار الأمعائي نفسه، هذه المعلومة المحددة تُعد اليوم من مكتسبات الكيمياء، وفسيولوجيا الهضم كانت غير معروفة مطلقًا في عصر النبي محمد ﷺ وإن معرفتها لترجع إلى العصر الحديث [١]، وإن تحدي الله للبشر ليظهر في هذه الآية فإن البشرية في أوج تقدمها لا تستطيع أن تخرج لبنًا من بين دم وفرث كما بينت الآية [٢] بهذا الترتيب الدقيق المعجز.

ب- النحل والنمل:

إن النحل والنمل من عجائب المخلوقات، ولقد هداها الله عز وجل إلى أمور يعجز علماء العصر أن يرتبوها أو يخططوها على هذا النحو.

(١) انظر: دراسة الكتب المقدسة (ص ٢٢٢، ٢٢٣).
(٢) الألوهية في الفكر الإسلامي (ص ١٠١).

فالنحل لها مملكة خاصة بها ولها ملكة تقوم على رعاية شئون المملكة وتدافع عنها وإن البيت الذي تبنيه النحلة لهو من أعجب العجب في شكله السداسي بالذات دون سائر الأشكال ؛ لأن الشكل السداسي إذا انضمت بعض أشكاله إلى بعض صار شكلاً مستديرًا كاستدارة الرحى ولا يبقى فيه فروج ولا خلل، ويشد بعضه بعضًا حتى يصير طبقًا واحدًا لا يدخل من بيوته رؤوس الإبر مما يعجز عن صنعه البشر، فمن الذي ألهمها ذلك وهداها؟ هل هي الصدفة العمياء أو العزيز العليم؟

ثم الإلهام لها من قبل الله أن تتخذ من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرشون وهو الترتيب الذي يتناسب مع حياة الإنسان فقد ألهمها الله عز وجل أن تكون مستعدة ؛ لأن تحيا في الكهوف والجبال مع الإنسان في طوره الحجري يوم كان الإنسان يسكن الكهوف والمغارات، كما ألهمها أن تسكن الأشجار عندما انتقل الإنسان من حياة الرعي والتنقل إلى حياة الزراعة والاستقرار، ثم ألهمت في النهاية أن ترحل إلى الخلية عندما يتعلم الإنسان الصناعة ويتحضر على فنونها..

فالمراحل الثلاث التي ذكرت في سياق الوحي للنحل هي أوامر إلهية لطبيعة النحل أن تستجيب لحاجات الإنسان كلما طور الإنسان حياته ثم هناك الإلهام الذي يتخاطب النحل عن طريقه، وهو الرقص الذي يعرف بواسطته الاتجاه الذي يجب أن يتخذه والمسافة التي توجد عليها الزهور التي سيمتص رحيقها وأخيرًا العسل الذي يخرج من بطونها، بما يحويه من شفاء للناس، وهذا ما قرره علماء العلم الحديث أخيرًا، وصدق الله العظيم الذي قدَّر فهدى [١].

(١) انظر: شفاء العليل في القضاء والقدر والتعليل لابن القيم (ص ٦٦- ٦٨)، العلم يدعو إلى الإيمان (ص ١١٦- ١١٨)، والألوهية في الفكر الإسلامي (ص ١٠٠- ١٠١)، ودراسة الأسفار المقدسة في ضوء المعارف الحديثة (ص ٢١٩).

أما النمل:

فله شأن آخر في التنظيم والترتيب والهداية، من أول خروجها من بيتها للبحث عن الطعام إلى الحصول عليه إلى الرجوع به إلى دخوله في بيتها، ذلك بأنها تخرج للبحث عن رزقها، فإذا وجدته حملته فإذا لم تستطع حمله استدعت زميلاتها فيتعاونون جميعًا في حمله وحين تخزينه تنظر إليه فإذا كان مما ينبت فلقته فلقتين فإذا كان في فلقها اثنتين إنبات عمدت إلى كل فلقة ففلقتها اثنتين فمن الذي أخبرها أن هذا النبات ينبت في فلقتين وهذا لا ينبت؟ إنه الله تعالى الذي رزقها حاسة شم قوية تدرك بها ما يدركه غيرها بالبصر أو السمع [١].

وقد لاحظ العلماء أن النملة «**تقوم بعمليات معقدة، فإذا كانت مكونة من ذرات مادية فمن الذي ألهمها ذلك؟ لا شك أن هناك خالقًا أرشدها إلى كل ذلك**».

والأمثلة لا تحصى على هداية الله للكائنات التي خلقها، والمتأمل في سلوكها وما تقوم به من أفعال لا يمكن أن يقول إنها صادرة عن الصدفة العمياء، وما تفعله ثعابين البحر من هجرات طويلة وعودة صغارها إلى مواطن آبائها الأصلية إلا نموذج لتلك الهداية والأمثلة كثيرة في عالم الطيور والزواحف والحيوانات وجميعها أدلة تشهد بخالق بارئ مصور خلق كل شيء فقدره تقديرًا [٢].

ثالثًا النبات:

من الأدلة البليغة التي تثبت العناية والقصد في النبات ما ذكره الله تعالى في الآيات التي تتحدث عن النبات، وعجائب صنع الله فيه وتزاوجه نذكر من هذه الآيات:

(١) انظر: شفاء العليل (ص ٦٩- ٧١).

(٢) انظر: العلم يدعو للإيمان (ص١٢٠- ١٢١)، وانظر: الأمثلة المتعددة التي ذكرها الشهيد سيد قطب في ظلال القرآن عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر :٤٩] الآية ٤٩ من سورة القمر، وانظر: ظلال القرآن (٦/ ٣٤٣٨/- ٣٤٤١).

١- يقول الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد :٤] .

٢- ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل :١٣] .

٣- ويقول عز وجل: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج :٥].

٤- ويقول تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان :١٠].

٥- ويقول سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس :٣٦].

هذه الآيات في مجموعها تقرر أمرين:

الأمر الأول: إعطاء كل نبات خاصية معينة في الطعم والشكل بالرغم من كونها متجاورة متلاصقة ومع ذلك تُرى وهي تُسقى بماء واحد ومتعرضة لحرارة واحدة، بالرغم من ذلك كله يراها الإنسان متغايرة الثمر في الأشكال، والألوان، والطعوم، والروائح متفاضلة في الأكل [(١)]، منها الحلو ومنها المر، فلو كانت الصدفة هي التي أنتجت هذه الأشياء هل كانت ستراعي هذا التفاضل؟ نقول كلا وألف كلا ، إن الذي خلقها **«قادر مريد موقع لأفعاله على وجه دون وجه»** [(٢)].

الأمر الثاني: التناسل في النبات: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات :٤٩].

---

(١) انظر الكشاف (٢/٣٤٩)، والرازي (١٩/٦- ٨)، (٢٠/٣- ٥)، الدين (ص ١٧٦، ١٧٧).
(٢) الكشاف (٢/٣٤٩).

وإن من عجائب صنع الله في النبات عملية التلقيح والتناسل بين النباتات بعضها والبعض الآخر لقد كشف العلم الحديث أن التناسل في النبات يتم بطريقتين:

الطريقة الأولى: جنسية: وهذه الطريقة هي التي تحدد العملية البيولوجية التي تهدف إلى إظهار فرد جديد مطابق لذلك الذي أولده، ويتم هذا التناسل الجنسي بواسطة تزاوج عناصر ذكرية بعناصر أنثوية تنتهي إلى مكونات التجديد المجتمعة على نفس النبات أو المنفصلة.

الطريقة الثانية: اللاجنسية: وهذه الطريقة يتم التكاثر فيها عن انقسام عضو يكتسب بانفصاله عن النبات الأصلي نموًّا يجعله شبيهًا بذلك الذي خرج عنه.

ولكن كيف ومتى بدأت هذه العمليات؟ لا يكفي أن يكون هنالك ضوء، ومواد كيميائية وهواء لكي ينمو النبات، إن هنالك قوة داخل البذرة تنبثق في الظروف المناسبة تؤدي إلى قيام كثير من التفاعلات المتشابكة، إن تلك البذرة تتكون من أعداد لا حصر لها من العناصر والعمليات تكون نباتًا جديدًا يكون له مثل الصفات للنبات الذي يخرج عنه بحيث لا تنتج حبَّة القمح إلا قمحًا، ولا بذرة البرتقال إلا البرتقال، وبالرغم من التشابه القريب جدًّا بين أنواع النباتات إلا أن لكل نبات صفاته ومميزاته وخواصه، إن كل هذه الترتيبات تدل على نظام رائع ، وجمال لا مثيل له ولا حدود له كل هذه العجائب يراها الإنسان أينما اتجه في عالم النبات العجيب [1].

ونحن لا نملك إلا أن نردد قول الله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل :٨٨] . وقوله سبحانه: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان :١١].

(١) انظر التربية والنبات مقال لسترجون زمرمان ضمن كتاب الله يتجلى في عصر العلم (ص١٢١)، وانظر: الأسفار المقدسة في ضوء المعارف الحديثة (٢١٥- ٢١٧)، وقصة الإيمان (ص ١٧٩).

استحالة المصادفة من الناحية العملية:

بعد هذا التنويع من الدلائل التي تثبت بما لا يدع مجالاً للشك في أن القول بالصدفة خرافة الماديين، فإننا نعمد في هذه السطور لنأخذ من علم الحساب والإحصاء خطأ القول بالمصادفة من الناحية الرياضية، ولقد أورد «**كريس موريسون**» رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك مثالاً يوضح ذلك ، يقول: «**لنفترض أن معك كيسًا يحوي مائة قطعة من الرخام، تسع وتسعون منها سوداء وواحدة بيضاء، والآن هز الكيس، وخذ منه واحدة إن فرصة سحب القطعة البيضاء لا تزال بنسبة واحد إلى مائة غير أن فرصة سحب القطعة البيضاء مرتين متواليتين هي بنسبة واحد إلى عشرة آلاف، والآن جرب مرة ثالثة: إن فرصة سحب تلك القطعة البيضاء ثلاث مرات متوالية هي بنسبة مائة إلى عشرة آلاف مرة بنسبة واحد من المليون ثم جرب مرة أخرى أو مرتين تصبح الأرقام فلكية**»[١].

هذا مثال واقعي من الممكن أن يقوم به أي إنسان في بيته، فلننقل هذا المثال إلى خلق الكون بالمصادفة ولنجرب عليه ما حدث في قطع الرخام، فسوف ينتج لنا ما لا يتصور بأي مقياس من المقاييس، إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية تتكون من خمسة عناصر هي: الكربون والأيدروجين، والنيتروجين، والأوكسجين والكبريت، وعدد الذرات في الجزيء البروتيني الواحد ٤٠٠٠٠ ذرة، وعدد العناصر الكيميائية في الطبيعة ٩٢ عنصرًا موزعة توزيعًا عشوائيًّا واحتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكوِّن جزيئًا من جزيئات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تُخلط خلطًا مستمرًا لكي تؤلف هذا الجزيء، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد.

ولم تَقف محاولة العلماء عند حد، فقد قام العالم الرياضي السويسري

(١) العلم يدعو إلى الإيمان بتصرف (١٩٣- ١٩٤).

«تشارلز يوجيه جاي» بحساب هذه العوامل جميعها، فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد إلا بنسبة: ١ إلى رقم عشرة مضروبًا في نفسه ١٦٠ مرة وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة لإنتاج جزيء واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات، ويتطلب تكوين هذا الجزء على سطح الأرض وحدها بطريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدَّرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها ٢٤٣ مرة من السنين [١].

كم يحتاج خلق الإنسان؟ كم يحتاج خلق الحيوان؟ إذا كانت هذه الأرقام من أجل إنتاج خلية حية واحدة، ومن العجيب أن ينسب المادي الكون إلى المصادفة ولا ينسبه إلى الله [٢]، بالرغم من أن الإمكان الرياضي في توفر العلل اللازمة للخلق عن طريق الصدفة في نسبتها الصحيحة هو ما يقرب من لا شيء [٣].

* * *

(١) انظر مقال فرانك ألن: نشأة العلم هل هو مصادفة أو قصد ضمن كتاب الله يتجلى في عصر العلم (ص ٥).

(٢) انظر: مداخل إلى العقيدة الإسلامية (ص١٩٢، ١٩٣).

(٣) الإسلام يتحدى (ص ٧٠).

شبهة القائلين بالتطور والرد عليهم حول التطور مفهومًا وفرضًا

وهذه الشبهة نتائجها متضمنة في الشبهتين السابقتين إذ إنها في التحليل النهائي تهدف إلى أن الكون أزلي أبدي وأنه وُجد بنفسه بدون خالق وأن الأحياء تتطور من جماد إلى حيوان ومن حيوان إلى إنسان.

والقول بالتطور ليس من مبتدعات الماديين المحدثين ولكن يعود القول بالتطور إلى الطبيعيين الأوائل في اليونان، فقد أشاروا عرضًا إلى التطور، وصرح به «أنكسمندر» في تفسيره لنشأة الكون حيث زعم أن الأحياء تطورت بعد أن تولدت من التراب والماء والهواء فالكائنات كانت في الأصل سمكًا ثم تطورت إلى الأنواع المختلفة التي نراها.

والإنسان منحدر من حيوانات مائية مختلفة عنه بالنوع حملته في بطنها زمنًا طويلاً [١].

وفي الفلسفة الحديثة عُرف القول بالتطور عند «لامارك» الفيلسوف الفرنسي ١٧٤٨- ١٨٢٩، وعُرف كذلك عند «ديدور» ١٧١٣- ١٧٨٤ ولكنه اشتهر وارتبط باسم الفيلسوف الإنجليزي «تشارلز داروين» ١٨٠٩- ١٨٨٢، الذي ذهب إلى أن الباحث الطبيعي إذا تدبر أصل الأنواع وأمعن النظر فيما يقع بين الكائنات العضوية انتهى به البحث إلى أن الأنواع لم تُخلق مستقلة منذ البدء، بل نشأت من أنواع أخرى، وقد اعتمدت نظرية «داروين» في المقام الأول، على مجموعة من الحفريات ومجموعة من الأحياء البحرية، ومن هذه وتلك وجد هناك تشابهًا عميقًا بين الأحياء بعضها وبعض ، فخطر له فرض مؤقت هو تطور هذه الأنواع بالرغم من أن لها أصلاً واحدًا أو بضعة أصول نمت وتكاثرت وتنوعت في زمن مديد بمقتضى قانون الانتخاب الطبيعي، هذا عن

(١) انظر: يوسف كرم (ص ١٥)، وحكمة الغرب (١/٣٥، ٣٦)، والعلم الإغريقي (١/٤٤)، والإغريق (ص٢٣٦، ٢٣٧).

الكائنات الحية [١].

أما عن الإنسان فقد ترك «داروين» مسألة الإنسان معلقة، ولكنه عاد فرأي أن ليس هناك من موجب لاستثنائه من قانون التطور، وقد تبعه في هذه النظرية كثير من الفلاسفة الماديين منهم «توماس هكسلي و«أرنست هكل»، وذاعت هذه النظرية ذيوعًا كبيرًا في الأوساط العلمية بالرغم من عدم علميتها، وسنبين السبب في ذلك عند نقضها إن شاء الله تعالى.

* * *

(١) انظر: أصل الأنواع: تشارلس داروين (ص١١٩- ١٢٠، ٢١٣) وما بعدها، ترجمة إسماعيل مظهر، وانظر: مدخل إلى الفلسفة أزفلد كولبه (٢١٥- ٢١٥) وأسس الفلسفة (ص ٢٨٥)، وموسوعة الفلسفة (٤٧٣/١- ٤٧٤) للدكتور عبد الرحمن بدوي، وانظر: تاريخ الفلسفة الحديثة (٣٥١- ٣٥٣) وانظر: الإنسان والداروينية: محمد صالح كريم خان، مطبعة الموصل سنة ١٩٧٦م.

الرد على شبهة التطوريين

أولاً: من القرآن:

لقد عرضنا نماذج من الآيات القرآنية التي أوضحت أن الكون لم يكن شيئًا ثم كان بأمر الله ، وأردفنا ذلك بمقررات العلم الحديث التي أثبتت عدم أزلية الكون واستحالة صدور الكون عن مادة لا حياة فيها، وهنا نؤكد على أمرين:

الأمر الأول: أن الله سبحانه وتعالى أعلن الإبداع في خلق الأشياء كلها في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات :٤٩] ، وهذه الآية وغيرها كثير من الآيات في القرآن الكريم تدلنا على الخلق المستقل لكل شيء مما نعلمه، وهذه الآية ترد على الذين يقولون بالتطور من النبات إلى الحيوان، ومن الحيوان إلى الإنسان.

الأمر الثاني: أن الله عز وجل قد سخر من الذين يقولون ذلك ونفى عنهم العلم، يقول تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف :٥١]. فالذين يتحدثون عن تطور الكائنات بعضها من بعض لم يشاهدوا هذه الكائنات، ولو سألنا واحدًا منهم هل شاهدت نباتًا تحول إلى حيوان؟ سيجيب بالنفي، ولو سألنا آخر هل شاهدت قردًا تحول إلى إنسان؟ سيجيب بالنفي [١].

وحينئذ يقعون في التناقض لأن العلم الذي يبنون عليه إلحادهم ويتبجحون بنتائجه لأنه يقوم على التجربة والحس والمشاهدة، يتناقض مع ما يدعونه لأنه يتنافى مع أبسط قواعد البحث العلمي وهو التحقق من صحة الفروض، وهم لم يتحققوا بعد من فروضهم حول التطور، فكيف ينادون بنظرية التطور على أنها حقيقة؟

---

(١) انظر معجزة القرآن (ص ١٩٣).

بعد تقديم هذين الأمرين ننطلق في عرض حقائق القرآن اليقينية عن خلق الإنسان:

إن أول ما نبدأ به حديثنا عن خلق الإنسان هو: آدم عليه السلام.

الله عز وجل يقرر أنه خلق آدم من تراب وقبل ذلك لم يك شيئًا، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر :٢٨-٢٩] ، وهذه الآية تبين أن آدم مخلوق بإرادة الله ولم يتطور عن نبات أو حيوان، وبعد أن خلقه خلق زوجه حواء، على اختلاف بين المفسرين هل خلقت من ضلعه أو خلقت من جنسه، ومعرض اختلافهم حول تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء :١].

فهل النفس هنا يقصد بها آدم؟ أو أن النفس هنا بمعنى الجنس أي من جنس واحد؟ ولن نعرض لاختلافهم [١]، فالذي يهمنا هو أن آدم وحواء هبطا من الجنة أسوياء مخلوقين لا متطورين عن شيء آخر، وهذا إن دل فإنما يدل على أن آدم عليه السلام ظهر في أعلى مراحل النضج البشري يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة :٣١-٣٣] .

وشيء آخر نضيفه قبل أن نترك آدم عليه السلام، وهو أن إرادة الله لا

---

(١) انظر الرازي (٩/١٦٠، ١٦١)، والكشاف (١/٤١٢)، والجلالين (ص ٦٤)، والمنار (٤/٣٦٥-٣٦٧) مع تحفظنا على التفسير الذي ذكره الإمام محمد عبده ودافع عنه الشيخ رشيد رضا.

تخضع لنواميس البشر ومقاييسهم، وإلا فماذا يقول التطوريون في خلق عيسى عليه السلام الذي شبهه الله بخلق آدم عليه السلام؟ (١).

هذا ما يتعلق بخلق آدم وأنه مخلوق بداية ولم يتطور عن شيء.

أما بني الإنسان فإن الله قد أشار إلى خلقهم منذ أن كانوا نطفة إلى أن اكتملت صورتهم وحسن خلقهم، يقول الله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون :١٢-١٤].

هذه الآية وغيرها كثير من الآيات التي تتحدث عن الإنسان ومراحل خلقه المختلفة منذ أن كان سائلاً منويًا إلى كمال تكوينه، توضح أن الإنسان مزود من قبل الله تعالى بخصائص معينة تظهره في أحسن صورة، ولا مجال للتداخل على الإطلاق بين الحيوان والإنسان لأنهما خلقان مستقلان لا يمكن للحيوان أن يتجاوز نوعه ولا يمكن للإنسان أن يتجاوز نفسه فهما مختلفان، والإنسان مميز بالنفخة الإلهية التي صار بها إنسانًا مسخرًا له ما في الأرض جميعًا، مجهز لحمل الأمانة التي كلفه الله بها (٢)، فالأطوار التي يمر بها الإنسان سواء وهو في بطن أمه أو بعد خروجه للحياة لا تمت للتطور الذي يتكلم عنه الماديون بصلة، فهذه المراحل والأطوار لا تعدو إلا أن تكون نموًا للإنسان، من النطفة إلى العلقة إلى المضغة، وكذلك من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب إلى الكهولة إلى الشيخوخة، وهذه الأطوار لم تخرجه عن كونه إنسانًا فيه كل مقومات الإنسان، يشير إلى هذا «موريس بوكاي» في قوله: «إن

(١) انظر: الإسلام والاتجاهات العلمية (ص ٦٢- ٦٤).
(٢) انظر: في ظلال القرآن (٤/٢٢٥٧- ٢٢٦٠)، وانظر: (٦/٣٧١٤).

مقولات القرآن عن التناسل البشري تعبر في ألفاظ بسيطة عن حقائق أولية أنفقت البشرية مئات السنين لمعرفتها» [١].

أما ما يستند عليه التطوريون في دعواهم من وجود تشابه بين الإنسان والإنسان، وبينه وبين الحيوان، فلا ينهض دليلاً على التطور وإنما يستخدم شاهدًا على قدرة الله عز وجل، فإنه بالرغم من هذا التشابه فإن لكل إنسان صورة تختلف عن الآخر، هذا فضلاً عن أن البشرية كلها منذ خلقت إلى أن يفنى العالم لن يجد فيها العلماء بصمات إنسان مشابهة لبصمات إنسان آخر على امتداد تاريخ البشرية كلها، فمن الذي أوجد هذا الاختلاف؟ [٢] العناصر المتطورة التي لا تحس ولا تشعر أم الله الخالق البارئ المصور؟ إنه الله الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى.

إن دعاة التطور لا دليل لهم من عقل أو حس، يقول «الأفغاني»: «من واهياته ما كان يرويه «دارون» عن جماعة كانوا يقطعون أذناب كلابهم، فلما واظبوا على عملهم هذا قرونًا صارت الكلاب تولد بلا أذناب كأنه يقول حيث لم تعد للذنب حاجة كفت الطبيعة عن هبته، وهل صمت إذن هذا المسكين خبر العبرانيين والعرب وما يقومون به من الختان لآلاف السنين وإلى الآن لم يولد واحد منهم مختونًا إلّا لإعجاز» [٣].

وسوف يتضح لنا تهافت نظرية التطور من خلال العلم الحديث عند عرضنا لنقد نظرية التطور.

---

(١) دراسة الأسفار المقدسة في ضوء المعارف الحديثة (ص ٢٣٤) وانظر: الدراسة الوافية التي قدمها عن خلق الإنسان في القرآن الكريم (ص ٢٢٥- ٢٣٢).

(٢) انظر: معجزة القرآن (١٩٣- ١٩٤)، وانظر دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث (ص ٣٤٨- ٣٤٩)، وانظر: الدكتور يوسف عيسى: مجلة عالم الفكر العدد الرابع من المجلد الثالث نقلاً عن الإسلام والاتجاهات العلمية (ص ٥٨- ٥٩).

(٣) الرد على الدهريين (ص ٢٣) جمال الدين الأفغاني ترجمة الإمام محمد عبده، نشر الإسلام العالمية ١٩٨٣م.

ثانيًا: العلم الحديث ونقده لنظرية التطور:

بعد أن قدمنا وجهة النظر الإسلامية وهي من وجهة نظرنا كافية لإبطال نظرية التطور إلا أننا نريد أن نتبع وجهة النظر القرآنية بما انتهى إليه العلم من نتائج حول التطور.

ونحن حين نعرض وجهة النظر الحديثة فإنما نعرضها لأمرين:

الأول: إن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها.

الثاني: كما يقول أستاذنا الدكتور/ عبد الله الشاذلي: إن إبطال بعض الآراء العلمية بما يناقضها في نفس المجال، وبنفس المنهج العلمي ذاته يجعلها تتناقض، ويترتب على ذلك أن تتأرجح، وتسقط؛ ولأن بعض البشر يميلون إلى سماع آراء المعارضين وبالتالي فإن سماع وجهة النظر الغربية في بطلان القول بالتطور، لا يعد تدعيمًا لوجهة نظر القرآن وإنما هو اعتراف بالحقيقة التي أقرها القرآن الكريم [١].

وتتلخص وجهة النظر الغربية في نقد التطور في الآتي:

أولًا: إن هذه النظرية ظنية وليست قائمة على التجربة أو المشاهدة ونظرية التطور لم يلاحظها أحد أو جربها في معمله ؛ لأن ذلك ضرب من المستحيل، فهي نظرية معقدة فضلاً عن أنها تتعلق بماض سحيق جدًا موغل في القدم، ولذلك فإن أصحابها يتعاملون معها لا على أنها فرض علمي أو تجربة علمية ولكن على أنها عقيدة يقول السير آثر كيث: «**إن نظرية الارتقاء عقيدة أساسية في المذهب العقلي**» [٢].

وتعرف أيضًا في أحد المعاجم العلمية بأنها «**نظرية قائمة على تفسير بلا برهان**» [٣].

---

(١) انظر: المنهاج القرآني (ص ٧٧) بتصرف يسير.

(٢) الإسلام يتحدى (ص ٤٥).

(٣) المصدر السابق.

ثانيًا: لقد ألف مجموعة من العلماء كتابًا تحت عنوان «خلق لا تطور» وانتهوا فيه إلى أن:

أ- الجماد غير قادر على تحسين نفسه بل هو على الضد يميل إلى التجرد أو الاستقرار ولا فائدة قط من الاعتماد على طول الزمن لأن طول الزمن يؤدي إلى الانحلال والتفكك، ويسبب انقراض المعادن ، وتفتت الصخور، وعلى هذا فالزمن عامل رئيسي للهدم وليس للبناء ومن ثمَّ فالزمن هو العدو الأول للتطور، وليس سلاحًا يتسلح به التطور [١]، على ما يزعم التطوريون.

ب- هناك إجماع من العلماء المشتغلين بالأحياء على أن الحياة لا بد أن تأتي من الحياة وليس هذا فحسب، وإنما الإجماع منعقد على أن كل كائن حي يأتي بمثله ولذلك فإن الاستدلال بقانون الانتخاب الطبيعي يفسر عملية بقاء الأصلح ولا يمكن أبدًا أن يفسر حدوث هذا الأصلح، وهذا ما جعل العلماء يذهبون إلى أن التطور هو أحد السنن الكونية والذي يحتاج إلى من يبدعه فهو إذن من خلق الله وصنعه.

إن كل ما يفعله الانتخاب الطبيعي هو أنه إحدى الطرق التي تسلكها بعض الكائنات في سبيل البقاء أو الزوال عن طريق الحياة، والتكاثر بين الأنواع المختلفة أما الأنواع ذاتها التي يتم فيها الانتقاء فإنها تنشأ عن خطوات تخضع لقوانين تسير بعناية وتدبير ولا تخضع للصدفة العمياء [٢].

الإصرار على الكفر هو سبب تمسك الماديين بنظرية التطور

والسؤال الذي يطرح هنا إذا كانت نظرية التطور غير ثابتة علميًا فلماذا التمسك بها والإصرار عليها من جانب الماديين؟

(١) انظر: خلق لا تطور (ص ٣٦) بقلم: مجموعة من العلماء ترجمة: د/ إحسان حقي، دار النفائس ببيروت الطبعة الثانية سنة ١٩٨٣م.

(٢) خلق لا تطور (ص ٤٢)، الإسلام يتحدى (ص ٣١)، الله يتجلى في عصر العلم (ص ٣٩).

وإن تعجب فعجب قولهم إن العلماء الماديين يعترفون بأن النظرية ما هي إلا فروض لم تتحقق ولكن التخلي عن نظرية التطور ستجعلهم يؤمنون بخالق للكون وهم لا يريدون ذلك وبالتالي فهم يفضلون اتباع الظن على اتباع الحق هكذا يقولون.

يقول آرثر كيث: «**إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علميًا ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان، ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخلق الخاص المباشر وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه**»[(١)].

وهذه هي إرادة الإلحاد وهذا هو الكبر والتعصب للباطل فماذا يقال لهؤلاء من برهان وإقناع؟ ثم بماذا يناقشون؟ وقد عرفوا الحق وأعرضوا عنه.

* * *

(١) نقلاً عن الإسلام يتحدى (ص ٣٩).